المنتهى الأخير

رواية

الكتاب: المنتهى الأخير / رواية

الكاتب: خالد محمد غازي

الطبعة : ٢٠١٦

الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم ـ الوحدة العربية ـ مدكو ر. الهرم ـ الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com **E-mail: news@apatop.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

غازى، محمد ، خالد

المنتهى الاخير – خالد محمد غازي – الجيزة – وكالة الصحافة العربية، ٢٠٠٧

تدمك : x – ٦٣ – ٥٧٧٢ – ٩٧٧

١٦ ص ، ١٨ سم .

رقم الإيداع / ٥٧٣٦

رواية

المنتهى الأخير

خالد محمد غازي

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء:

إلى لنا .. معها كانت البداية

(١)

بلغني أيها الملك السعيد ..

أنك ستداري قصتك معي، كما يداري أمير عشقه لبائعة الورد..

سترمي أوراقي في درج مجهول قائلاً: إنها ليست لك ..

ستدفن أيامي في صندوق الذاكرة الصدئ، وتلقي مفتاحه في غور كبريائك ..

ستنكر أنك حللت ضفائري، وأنك فككت أزرار ثوبي، وضممتني إليك عارية، نقية كعروس بحر .. لن تجرؤ على الاعتراف إنك غفوت على صدري طفلاً .. وإنك بُحت لي بكل أسرارك.

ستنكر معرفتك باسمي .. وحين يسألونك عن تلك الفتاة الغريبة القادمة من أرض بعيدة، والتي وصفتها يوماً بأنها تضع الكرز على شفتيها والسنابل على شعرها، ستؤكد أنك ما عرفتها أبداً ، وأنها كاذبة تدعي معرفتك.. ستطلب من رجالك السماح لها بالمبيت في فندق الغرباء، شرط أن ترحل قبل بزوغ الفجر ..ستأتي إليها ليلاً ، باكياً تنزف حزناً ونـدماً وتضمر أنانية وخوفاً ، ستعتذر وتطلب منها غفران تجاهلك ..

ستشرح حكاية منصبك وهالتك الضوئية التي لا يمكن لأية امرأة أن تخترقها .. ستحكي كثيراً ..كثيراً عن لوعتك، عن عجزك، لكنها لن تسمع، لأنها رحلت بعيداً ، وأنت مغمض العينين تطلب الصفح.

وأدرك شهرزاد الصباح، ورحلت .. وسكتت عن الكلام المباح.

(٢)

أتعبني الرجوع إلى قطار عمري .. أتعبني هذا القطار يهرول مسرعاً.. ويدوس على أوجاعي .. ما عاد ينفع الكلام .. أو الاعتذار أوالتراجع .. لماذا لم نلتق من قبل ..؟!

لما التقينا، جعلتني أتذكر أن لقاءنا الأول كان منذ أكثر من عشرين عاماً ، أتذكرين .. ذلك الولد المشاغب .. والبنت ذات الضفائر .. هو أنا، وهي أنت ..

دعينا نتبرأ من الأسماء .. من الأماكن .. من الأزمان .. ومن المسؤوليات ومن كل شيء إلا انتماء كلانا للآخر.

الآن أعيش ذكرياتي – لا أدري ما السبب – أرجع في ثياب الصبا، حتى أرى كيف رأيتك أول مرة، وماذا كتبنا ؟ وهل وصلتك رسالتي الأولى.. أم طوتها صديقتك في صدرها، واحتفظت بها لنفسها؟

أين سافرنا؟ وماذا كتبنا ؟ ومن الذي دبر المكائد بيننا ليفرقنا؟.. بكيت وحدك، ورفضت الحوار معي .. تهورت فافترقنا.

يأتي صوتك عبر المحطات والموانئ والبلاد البعيدة، عبر الصحراء ينادي عليّ.

الماضي يأتي إلي بيتي ويزورني، يسحبني من يدي مرة أخرى ويقول لي تعال نرى العالم مرة ثانية !

لا تبتعدي أكثر .. لا تبتعدي مسافة أطول .. هذه النار التي احترق بها لا أريدها أن تحرق قلبك، وتلتهم سكون أيامك الحاضرة .. كل رسالة إليك هي احتراق، وكل كلمة منك تشعل النار مائة عام في جسدي .. هل تصدقين ؟!

(٣)

سكان بلدتنا تندروا بحكايات كثيرة عن جدي .. يقولون إنه يظهر فجأة في أمكنة مختلفة لمساعدة المنكوبين ، وقالوا إنه حارب في فلسطين ضد الإنجليز، وإنه طاف بلداناً كثيرة، قاصداً البحث في بلاد الله الواسعة عن كل مَن يريد العون والمساعدة، لكن جدي كان رجلاً حقيقياً بعيداً عن كل تلك الثرثرات التي حيكت حول قدراته وبركاته.

رجل اسمه يظل ملفوظاً وذكره محفوظاً ، لم يزل صداه يتردد بأخبار زهده.. أحببتُ أخباره، وكشف أسرار عظمته فكأنما أحببت

المحال، وبحثت عنه، حتى عرفت أي صنف من البشر هو، أتبعه بلا خوف "خذ بيدي عبر محطات القوافل حتى تخوم النشوة والتوحُّد".

كان غارقاً في عبادته، بدت تلك العبادة أمراً خارقاً لسكان البلدة .. إنهم لا يترددون في الإجماع والتأكيد على أنه يمتلك قدرات تفوق قدراتهم الجسدية والروحية.. كنت في الثانية عشر عندما مات جدي. ما عرفته عنه كان من ملازمتي له من سن السادسة، ومما كانت والدتي وعماتي يخبرنني به، حينها كنت صغيراً جداً ، وكان هو عملاقاً جداً في نظري، يرتدي العباءة البيضاء الناصعة ذات الأكمام الواسعة ويضع على رأسه طاقية بيضاء صغيرة، يسير بخطواته الواثقة فجراً نحو الجامع ليصلي الفجر، يمر على بيتنا فيطلب من أمي إيقاظي كي أذهب برفقته، أتذمر، أتأفف، وأتظاهر بالنوم، فيقول لها بحسم: "قولي له أن يتبعني" .. أقوم على مضض فألحق به .. أسير بجانبه أحاول أن أكلمه، فلا يجيبني في كل الأوقات، قلت له ذات مرة "لماذا يقولون عنك شيخ"؟

فأجابني: – وأنت ماذا تقول ؟

قلت : – وأنا أقول مثلهم.

قال : وماذا تعني كلمة شيخ؟

قلت ببراءة :"لا أدري".

أمسكني من كتفي ووضع يده الكبيرة على رأسي، ثم ابتسم قليلاً وكأنه لا يوجه حديثه لي: "ربما كنت تشبهني، لذا لن أقول لك ما معنى شيخ، عليك أن تدركها بنفسك، وأن تبدأ من حيث انتهيت أنا".

أمسك بيدي وتابعنا سيرنا، فعاد يتمتم، ربما كان يظنني لا أسمعه "لا تجعلها تغرك بمجرد مرورها قربك، لا تركن إلى هذا الجسد، لا تطمع من الحياة بأكثر مما منحته لك".

يومها لم أستوعب غاية كلماته، لكنني اليوم أذكره أكثر من أي وقت مضى.

فجأة يتلاشى كل شيء في شحوب الوقت.

(٤)

بلغني أيها الملك السعيد ..

يوم ولادتي ألبستني أمي ملابس صبي، وقدّمتني للناس والجيران باسم صبي، مع أني أرق من عود الريحان .. خافت أمي أن يكون مصيري مصيرها، أقضي حياتي في سفر وترحال من وطن إلى وطن .. ومن انتظار إلى انتظار، لكنها علّمتني أن الخوف لا يولّد انتصاراً .

الكلمة كلمتي والمشورة مشورتي، والكلمة أبدعتها ونسقتها، فنطقتها، ورثت عن أمي الخيال والجمال .. وورثت عن أبي سداد الرأي وعزيمة الرجال .. ذات يوم قدّمتني أمي لأبي على أنني صبي من الصبيان الثلاثة.. أنا بنت أمي التي لم تنحني لسلطان .. شهرزاد التالية، ستتشوق لمعرفة حكايتي، ليست حكاية جديدة من حكايات ألف ليلة وليلة، إنها الحكاية الحقيقية لقصة لم تقل بعد ولم تكتب حتى الآن، ولم تحك لأحد قبل اليوم .. تسألني: لماذا الليلة بالذات ؟ الليلة أحتفل بيوم ميلادي الحقيقي، يوم بعث القصة الحقيقية لكتاب أمي "ألف ليلة وليلة" والذي سمعته ألف مرة وأنا مختبئة تحت سرير أبي وأمي.. كل ليلة أسمع الحكايات وأجمع القصص، وأكتب ما يعجبني، وأترك ما لا يروق لي .. وبعد أن تنتهي أمي من الحكاية، ألبس العقال وأمشي في البلاد.. تركت بلادكم ومعي حكاياكم ..

سأركب الخيل، سأسبح في الوديان وأكلم الغربان، وأنظر في أعين الرجال، لأعرف مكنون الأشواق .. سأعد سنابل القمح، وأشكي همي للشجر والنجوم.. سافرتبلاداً وبلاداً ، وقابلت حكايات أغرب من حواديت الجن، ولما رضيت بحالي واطمأننت، كتبت حكايتي لكم ..

وأدرك شهرزاد الصباح، وسكتت عن الكلام المباح.

(٥)

مَن يجمع دموعي سوى أوراقي .. كيف أمنع عيني من النظر إلى جروحي .. وهل أمنع روحي من الاعتذار لك ؟! سيدغدغني غروري، وينقلب فوق رأسي، وتضحكين على طفولتي.

اذكري اسمي يا شهرزاد .. من أجل أن يستمر الصبح والليل والفرح الذي نريد.. ليتني أعرف ماذا جرى ؟ ماذا حل بك أيتها البنية العاقلة؟ كيف أعطاك "المنذر" تأشيرة – غبية – في لحظة رعناء وفي يوم عاصف بلا مطر، لتخرجي من بيته واسمه وشهيقه ورائحته، يومها لا شمس فوق رأسه كانت .. ولا نياشين ولا مُلك ولا قمر تبسم له .. لا عطر سيشمه بعد الليلة.. الجرح جرحك .. والدموع دموعك .. الدم الطازج النازف دمك..

بحاجة إلى عينيك حاجة طفل تائه تدليه علي الطريق.

بحاجة إلى يديك تنتشلني من السقوط .

بحاجة إلى صوتك لأصعد خلفه إلى السحاب الأبيض، أسكب شلالاتك على رأسي، ولا تطفئ نيران الحب.

يوم كتبت : حروف اسمك ماذا فعلت بي ؟

لا تقفي أبداً موثوقة ومقيدة، بعد أن اكتشفت مكان العلة، لا تكتفي بأحزانك التي تسخر منك .. لا تقولي كانت الأحلام محض

أكذوبة، فلم تكن أبداًأحلاماً، بل كانت سراباً في سراب .. حطمي مرايا الخوف، مزقي خرائط السراب .. متى ترجعين أنت ؟ متي ؟!

يسقط الليل على ستائرك .. لا السماء تداري اشتياقي، ولا الليل ينسيني وجهك .. تدمع عيناي، ترين الدمع رغم الظلام الحالك، وأنا أصغي إلى صوتك "حبك ولد مكتملاً منذ لحظة ميلاده".

لا تبتئسي أيتها الخجولة، الحنونة، أمتع أيامي عشتها معك .. لا تمنعي مطرك من أن يهطل على سنين عمري، أشتاق الآن أن أسبح فيه، فيعطيني ويفيض.

(٦)

قال لي الشيخ محمد علي أبو رفاعي:

حاولت مراراً أن ألتقي جدك، كان وقتها شاباً يافعاً، ارتحلت إلى حيث ذكروا لي أنه هناك، حتى تبعته في يوم جمعة إلى الجامع الأموي بدمشق. الناس ينظرون إليه، وكأنه لا يرى أحداً، فيرجعون عنه .. كنت أعلم أنه كثير الابتعاد عن الناس وخصوصاً أصحاب الولاية في الأعمال .. رفض الإفتاء والقضاء، محفوظ من كل ما فيه شبهة، فريد في الورع، ميسر عليه في ذلك أتم تيسير .. التقيته، حبسته بين يدي وهززته، تبسم ووقف معي، سألني عن نفسي، دعا لي باللطف، طلبت منه أن يطعمني، فقد ضاقت الدنيا بي، اعتذر وقال لي "اصبر"

أخرج لي بيده اليمنى حبات تين يابسة من جيب جلبابه الأبيض الطويل، غطاها بيده اليسرى ودفعها إليَّ، ثم ضحك معي، تعجب الحاضرون من لينه وانشراحه في التبسط معي، لأنه كان لا يتبسط مع أحد من الناس، ملأني فخراً لا يدري قدره إلا َمن يدركه.

قلتُ: خذني أعمل معك.

قال: من اشتغل بطلب الدنيا ابتلي بالذل.

– وكيف أعلم علمك ؟

– لا يصلح للعلم إلا لمن توفرت له أربع: الزهد والمعرفة والتوكل واليقين.

– وكيف يتم لي ذلك ؟!

– اجعل الصبر زادك، والرضى مطيتك، والحق مقصدك.

– يا شيخنا َمن خدم الصالحين ارتفع بخدمتهم.

"ابتسم .. ربت على كتفي وهو يهز رأسه".

رفعوا هوادج رحيله وسلم.

(٧)

بلغني أيها الملك السعيد ..

إن "شهرزاد" قالت لسيدها ووالدها: احملني إلى الأمير "المنذر" واطلب مهري عشرين ألف دينار ذهب، فإن استغلاني، فقل له" إنها

وحيدتي وقرة عيني"، اختبرها يعظم قدرها في عينكِ، لأن هذه البنية ليس لها نظير أو شبيه، لا تصلح إلا لمثلك.. ثم قالت: إياك أن ترضى بدون ما قلت لك من المهر، إنه قليل في مثلي..

وكان ولي أمرها لا يعلم قدرها، لا يعرف أن ليس لها نظير في زمانها، ثم أنه حملها إلى "المنذر" وقدّمها له وذكر ما قالت، فسألها : يا شهرزاد.. ماذا تحسنين من العلوم؟

قالت له بفخر: إني أعرف فن الرواية والشعر واللغة، أعرف أساطير الأولين، أعرف القرآن الكريم، وقد قرأته بالسبع والعشر، أعرف علم الحكمة والمنطق والبيان، حفظت كثيراً من العلوم، تعلقت بالشعر فحفظته ولحنته، أعرف الموسيقى، ضربت العود وعرفت مواضع النغم فيه، ومواقع أوتاره وسكناته، إن غنيت ورقصت فَتَنْتُ، وإن تزينت وتطيبت قتلت، لقد وصلت إلى شيء لا يعرفه إلا الراسخون في العلم.

ولما سمع الأمير كلامها على صغر سنها، تعجب من فصاحة لسانها، والتفت إلى مولاها، قائلاً: سأحضرَ من يناظرها في جميع ما ادعته، فإن أجابت، دفعت مهرها وزيادة، وإن لم تجب فأنت أولى بها.

وكتب الأمير إلى أمه وأخواته البنات.. وكانوا في رأيه أعظم أهل زمانه في الحجة والبلاغة والمنطق.

جلسوا جميعاً في مجلس واحد، وحضرت شهرزاد، وأظهرت نفسها كأنها كوكب دري، سلمت وصمتت، أطرقت برأسها إلى الأرض، وقال لأهله: أريدكم أن تدحضوا حجتها في كل ما ادعته، قالوا: السمع والطاعة، فسألوها عن مسائل كثيرة، فأجابت ببيان فياض، وثقة معجونة بكبرياء العالم ببواطن الأمور، تعجبوا جميعاً من طلاقة لسانها على صغر سنها، ناظرتهم، وقالت: العقل عقلان.. عقل موهوب وعقل مكسوب.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

(٨)

من بين كل محطات العالم،التقيتك أنت أسطورة وواقعاً يومياً ، فسافرت معي في وجداني.. وفي حنايا مشاعري.. لا أعرف ما سر انجذابي إليك.. ولم أسأل نفسي هل تبادلينني نفس الانجذاب؟

بقدر ما تعرفين جيداً أن صناعتي الكلام.. إلا أنني متردد في الدق على أبواب الحروف التي تشكّل الكلمات التي أكتبها لك. أيتها "الأسطورية" المبحرة فّي.. هل أنا مبحر فيك؟

أخبريني.. َمن أنت؟ كيف نبت ونميت في مشاعري؟ رغم أنك تدعين الوداعة، لكني لم أشعر بك أبداً إلا عاصفة وطوفاناً ، يقذف عنفوانه في سمعي تارة أخرى.. أتطاردك ذئاب أوهامك وتضحك على خيالك أيتها الطفلة .. هل تخبئين مشاعرك أم تخشين من جموحها؟

أي قدر غريب جمعنا.. بلا موعد ولا ترتيب.. أي قدر غريب فرقنا.. لم يترك لك الوقت حتى تتأملي ملامح وجهي.. لم يمهلك الوقت، لتتذكريني أكثر.

ماذا يجري في رأسك.. هل تنوين وضع اختبار جديد لي؟ أم تنوين عدم دخولي إلى وجدانك إلا بتأشيرة من عقلك؟ أي عقل تتحدثين عنه.. وأوهامك وقلقك وتراجعك يجعلونك دائماً تخسرين أجمل اللحظات في عمرك.. أتنوين إعطائي تأشيرة مغادرة لمشاعرك، لأني اكتشفتك.. اكتشفت أنك تبحثين عني، تخبئين صورتي بين أشيائك الخاصة.. تسألين نفسك ماذا الذي يريده مني هذا البعيد..الغريب؟ لا أريد انتصاراً لاقتحام جسدك الذي يؤرقك.. بل أريد شروقاًلوجهك، تفتحاً لثنايا وجدانك وأحلام يقظتك المستحيلة!!

ربما تقولين إنني عاشق مجنون.. جربي معي الإبحار في الجنون والذوبان في خلجاته.. ماذا أفعل إذا كان وجهك لم يكتشفني وسط الزحام؟ ماذا أفعل وأنا لا أريد أن أكون رجلاًمكرراً بالنسبة لك؟

عندما غادرتك منذ ساعة أو يوم أو يومين أو أسبوع أو شهر أو عامين أو ثلاثة لا أذكر.. وصوتك لم يفارقني وحكاياتك الملحمية أستعيدها.. من أين لك كل هذه القدرة الفذة على التأليف والإبداع والسرد.. ألا تتداخل الحكايات لديك.

قـررت أن أرجـع إليـك، مقتحمـا لكـل شـيء.. الزمـان والمكـان.. والمطارات والتأشيرات.. لكني تراجعت، هل ينفع أن أسافر في المستحيل؟ مازالت جبال الغياب أكبر منا.

(٩)

سألوه: متى تكشف لنا عن سبحات المحبوب؟ ونرى عجائب الغيوب، فنعرف بواطن ما تقتصر عن إدراكه العقول، ونتلقى عرائس الأسرار بالقبول .. وكيف لنا بالوصال؟

قـال الشـيخ عـوض : طريقنـا المجاهـدات، ولا نسـعى لعمـارة الباطل.

توقف عند الكافورة الوحيدة في هذا المكان الحار الساخن المتلظي، بعد أقل من ثلاثة كيلو مترات سيتوقف أمام مقام أستاذه وشيخه.. تنفس من أعماقه .. قال بهمس لا يدري ـ هو شخصياً ـ أكان يخاطب نفسه، أم يخاطب أحداً معه.

هلحن عُدنا من جديد .. كأن الثلاثين عاماً كانت يوماً واحداً مر بالأمس.. نعم مر بالأمس لم يكن يدري بالضبط أين مر وفيما مر بالضبط.. وفيما كانت غيبته .. لماذا اليقين من أنها كانت ثلاثين عاماً أوحتى يوماً واحداً ؟ قد تكون ساعة أو لحظة من يدري .. نزل وصلى

ركعتين تحت ظل الكافورة التي غرسها يوماً بيديه عوداً ضعيفاً .. جاء شخص تلاه أشخاص متفرقون .. سألوه: أين القبلة: أشار بيده
– في هذا الاتجاه ..

سـأله واحـد مـنهم: كيـف عرفـت فالشـمس فـي منتصـف السـماء؟.. رد عليـه بابتسـامة سـمحة.. صـلى بهـم الظهـر جماعـة .. وبعد أن انتهى وصلى السُنة، أخذ يدعو مبتهلاً، ُمركزاً في دعائه ألا يعدم الذاكرة مرة أخرى ... المصلون انصرفوا وظل هو يبتهل ساعتين أو يزيد..سقط مغشياً عليه .. في حضرةَ من يهوي، لا مكان يحتويه ولا زمـان ولا شـيء يفسـد الحالـة .. عنـدما أفـاق قـام، حمـل أمتعتـه البسيطة "إن الله يريدنا كما يريد .. ويرانا كما يريد، فلا تعلل الأمور".

متى تساقط شعر رأسه لا يدري ؟!

متى اغرورقت عيناه بالدمع لأول مرة لا يدري ؟!

من أين أتى ؟! ومنذ متى ؟! لا يعرف !

وهو يسير على الطريق .. راعه منظر البنايات العملاقة والبيوت المزخرفة يزين واجهتها السيراميك والرخام النفيس.. راح يستدير وهو يواصـل السـير.. كأنـه يتأكـد مـن أن طريقـه هـو المرسـوم لـه .. بـدأت القصـور والبنايـات والبيـوت تتنـاقص هـو يسـير وهـي تتضـاءل، فقـدت حجمها، راحت تبهت وتذوب في لون رمادي .. أناس كثيرون قابلوه يهرولون عكس اتجاهه .. يصرخون فيـه أن يذهب معهـم، لأن الأمير

يطلب الحضور إلى قصره لكل من في هذه الضياع .. لم يستجب .. "يا لطيف ألطف بنا من قضائك .. ولا ترهبنا مما نخاف" الدعاء بلغ منتهاه ومبتغاه .. ارتفع صوت أقوى من الرعد "لا ترهبنا مما نخاف" تتردد مرة.. اثنتين .. ثلاث.. أربعين.. ألف مرة .. آلاف.. ملايين ...

أنتم أصحاب أمزجة كثيفة .. أصحاب هوى ونزوات..يصعب عليكم إدراك رقيق الكلام.. أين أنتم يا أصحاب الأبدان الصلبة، والأرواح الشفافة؟ كيف تريدون الارتقاء لأرفع المعارج .. وتصيرون موطنا لتنزلات المعارف؟!

لا تسأل كيف يشرق اليقين .. أو كيف ترتحل إليه؟

كيف تطمع أن تدخل في حضرته .. وأنت لم تتطهر من جنبات غفلاتك ..كيف ترجو أن تفهم دقائق الأسرار، ولم تتب من هفواتك؟

(١٠)

بلغني أيها الملك السعيد ..

أنه كان منذ قديم الزمان – وما أشبه القديم بالحاضر والليلة بالبارحة ـ رجل شاب تاجر ثري، مقرب إلى الأمير "المنذر" يدخل دار الأمير من غير إذن، ويحبه الأمير وأهله وخدمه، يحدث الأمير بنوادر الأخبار، وما يقوله الناس من حواديت وأحداث ونوادر ونكات.. كان هذا الشاب

حسن الصورة، جميل الخلقة، عذب الحديث، باسم الثغر، مورد الخدين، يحب البسط والانشراح، كانت أم الأمير تنوي تزويجه من إحدى ابنتيها، وكلتيهما ذات حسن ودلال.. في إحدى الليالي نادى الأمير زوجته، "شهرزاد" التي تزوجها منذ أيام ناداها هي وأخواته البنات للتسامر معهما، فلما جلست "شهرزاد" وأبصرها صديقه وهي تضع على شعرها الحرير الخفيف، وحول وسطها زنار حرير مطرز، وتصب الشراب، تتحدث بصوت خفيض، شعر أنها سلبت عقله كما تفعل به الخمر، من ساعتها اشتعلت الغيرة في نفسه، تملكت نفسه الرغبة في شهرزاد نظراته الذئبية الناعسة سهام مسمومة..إنه يدبر أمراً ، ويتحين الفرص لنيل مراده.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

(١١)

كل قصة حب .. هل نهايتها الزواج؟

اليوم وإلى آخر المدى ستظلين رفيقة الروح بلا أوراق ولا شهود، كان قدرك أن تتزوجين من غيري بعقد مختوم بصكوك قوانينهم وشرائعهم، لكن لا بيت لك سواي.. أنا محكوم بك وأنت محكومة باسمي، سيغضبك اسمي إذا سمعته في دارك أو أمام زوجك.. سيجرحك، سيعذبك.. أنا آسف على وجع لم أسببه لك، واعتذر عن كلمات بلون الرماد.. المقتول لا يمكن أبداً أن يكون قاتلاً..لا يمكن للشاعر أن يكون جلاداً .. أتصدقين أنني

أول أعدائك.. كذبي نفسك.. كذبي الدنيا كلها، لا تطعني ثقتك فيّ.. لا تشعلي النار في تاريخي معك لحظة انفعال ضرير.

لا يمكن أبداً أن تكرهيني، حتى لو تزوجت ألف رجل غيري.. سأظل مسكوناً في ذاكرتك، أزاحم نبضك..معجوناً في دمك ولحمك.

ربما .. كان عليك أن تتزوجي من هذا "المنذر".

مبروك.. ربما تكون النهاية بالنسبة لك أجمل.. لكن بالنسبة لي ضربة مباغتة، قاسية كسرت كبريائي.. لكنها لم تكسر عمري، لأنها وصلته مع حب آخر لن تعرفيه، لا تبحثي عن ذكرياتك معي.. أورسائلي.. لا تفتشي عن روحي لتعانقيها خلسة، قولي لنفسك: إني خائن.. وأن الدنيا تغيّرت بالنسبة لك.. صارت أحلى وأن الطيور البريئة ستعود لأعشاشها و الغربان سترحل.

قولي لنفسك: إنك نخلة عظيمة لم تنكسر.. لكن تذكري أني رويتها بدمي وعذاباتي وجنوني.

قولي لنفسك: سأبحث بعيداً عنه، عن أحلام جديدة مع رجل آخر لكن لن تستطيعي منع ولائي لروحك.

سأقول أحبك حتى وإن لم تعانق سمعك.. لا يهم أن تقرأيها في أوراقي، لا يهم أن تبكي على حروفها.. لا يهم أن تُرسل إليك بالبريد..

أحبـك .. رغـم حروفهـا القليلـة ..تعلمـين جيـداً أنهـا تنطـق بأوجاعي.. مثل مراهق أجلس في غرفتي.. بلا حدود وبلا قاع، أردد أغنية كنت تحبينها.

يا سيدة العمر..أهلاً بك في بيتك في كل شهور السنة، مرحباً بك يا شتائي وخريفي وصيفي وربيعي.. اجلسي في دمي طوال الليل.. طوال النهار.

كلماتي التي أقولها تشمين فيها رائحة أوجاعي.. ليتك تدركين عمق جراحي من الكلمات التي أقولها.. أو التي أكتبها.. أو التي لا أقولها ولا أكتبها.. أيتها الغريبة.. المدهشة.

(١٢)

قال " علي أبو رفاعي" أحد الذين رافقوا جدي في رحلته إلى بلاد فلسطين.. في قرية تسمي "رملة" تقع ما بين دمشق ولبنان:

صلينا صلاة العصر في مسجد القرية، وشرعنا في تلاوة بعض الأذكار، فإذا بجماعة تقبل علينا، عرفوا الشيخ.. قالوا "إنك ضيفنا يا شيخ وصحبك" رحّبوا بنا، وبعد أن استرحنا سمعته يقول: "الله.. في جماعتكم طهروا أموالكم، قد استشرت الخطايا بينكم.. عيناي تفيضان من الدمع حزناً على ما حدث، وكبدي يتفطر، وحدتكم نال منها المرض ما نال.. راجعوا عشائركم طهروا بيوتكم، قد أعطيت

لأتباعنا الكثير من العطايا، وهم بعضهم لبعض كالبنيان المرصوص، جئتمونا تسألوننا عما تعرفون ..وإن لنا موعداً – إن شاء الله . في صلاة الفجر.

قال علي أبو رفاعي: ولما صلينا جماعة اختلى بهم الشيخ مدة، ثم خرج يودعهم بوجه صبوح، نظر إلى رئيس الوفد وقال له: ما أتعب أصحابك إلا انشغالهم عنا، وسيطرة نفوسهم عليهم، فإذا خلصت النية، واستأنس القلب مال إلينا.

– زدني يا شيخ علّي من سيرة جدي

– المواقف محفورة يا ولدي في ذاكرتي.. عرفتُ أنه قد حضر له كبير إحدى القرى – التي مر بها – أراد التبرك به، والتودد إليه، ومعه صُرة فيها مال كثير، أراد أن يسلمها للشيخ فاستحى أن يفعل ذلك، فسلمها لأحد الرجال ليسلمها له كهدية، سمع الرجل الشيخ يقول لجماعة مريديه، متجهاً بيديه إلى أحدهم وهو يقول:" إذا أحببت مريداً ، فأعرب له بإخلاصٍ عن مودتك وصفاء سريرتك، وإذا أحسست يوماً بكراهية هذا المريد، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم استقبل القبلة بطهارة، وقل في نفسك: "اللهم أرني أسباب كراهيتي وبغضي لهذا المريد .. اللهم جنبني وإياه تقلب القلوب، فأنت الحليم وأنت الودود، وأنت الغفار الرحيم..".

فقام الزائر عندئذ، وقدّم هديته بدون وساطة، ثم انحنى انحناءة فيها إجلال للشيخ وقال أمام الملأ – بصوت مرتفع – وّاللّـه لقد سبرت – أيها الشيخ – أغوار نفوسنا، وأخذت بناصيتها، وأصبحت بسّر خفي، لا يغيب عنك أمر – أبداً – من دقائق أمور حياتنا.. فقد كان بيني وبين أحد أتباع زاويتنا – وهو من سكان القرية – جفوة بغيضة، سقى تربتَها الغضبُ، فأينعت بالقيل والقال، حتى فسد حالنا، وذهبت بالشمَّاتة ريحنا، ونحن أتباع طريقتك نتعطّـر معك بالذكر، فتهفو قلوبنا، ونتدرَّع بحماه.

وإنني اليوم، أمام أصحابك، أعلن بصراحة تامة توبتي، وقد نذرت نذراً لله، إن قابلته يوماً ونحن نؤدي معاً إحدى الصلوات الخمس، تصدقت بقدر من المال، شكراً على هديه ونعمه، واعترافاً منا بفضله.

اقترب الشيخ من الرجل، وربت على كتفه، وابتسم وقال: اعلموا بأن محبَّتنا صفاء –كما قال صاحبكم – أتباعنا يتبعون الفضيلة، هارعين متهافتين، في رحابنا لا يجرؤ الشيطان على اقتحام القلوب، لاُطاوِعهُ في جميع حِيله ومكره الأهواء، وهو بين المريدين والأتباع، لا يحلم بأمانيه، لأن عصمتنا من شره وبأسه، كامنة في أسرارنا.

ثم رفع الشيخ يده متضرعاً، وقد فاضت عيناه: "اللهم إنا نعوذ بك من غضبك وجنبنا عداوة الناس، لنتجنب عداوتك".

التَّقوي صفاء، والصفاء محبة، والطهارة إزالة كل مكروب من الوجدان.

وقف الشيخ عندئذ، ولم يجلس كعادته بعد وقوفه وخرج من المجلس ولم يعُد إليه، غاب عنا أياماً، ونحن نحترَّق شوقاً إليه ولهفة إلى ذكره، وحين عاد قلت له – في استحياء –: أيها الشيخ، لا تحرمنا فضلك بالذكر فإننا – في كل يوم ـ نستثقل وجودنا في هذا المكان– بغير وجودك.، وحضورنا فيه بغير حضورك. فقال الشيخ: أنتم" الرفاق"، فلا تخافوا، وأنت مني . يا "أبو رفاعي" – بمنزلة هارون لأخيه موسى عليهما السلام، تشد– بمحبتك ومالك – أزري، تشاركني – برأيك الحصيف، وبقلبك الشَّغوف . أمري وهمِّي ووالله ما كنت في الأيام السالفة غائباً عنكم، ولا في الأيام الأخرى حاضراً بينكم حضور جسد بلا روح، إنما أنا وسطكم وبينكم كعيسى بن مريم – عليه السَّلام – بين الحواريين وكجدّي – عليه الصلاة والسلام – بين صحابته وعشيرته – رضوان الله عليهم – فهم كما تعلمون كانوا بمحبته – عليه السلاميفدونه فِداءَ أنفسهم في الغياب والحضور، لأن محبتهم ولاء وطاعة، ورباطهم بيعة.. المحبة الصادقة

لاتخمد شرارة جذوتها أبدا، فوقودها من حرارة الإيمان، والإيمان ظله وارف لا يزول، وقوة ضد كل تلبيس لا تفتر ولا تغور، وعزيمته تدك الجبال دكا ولا تخور".

فرك الشيخ علي أبو رفاعي جبينه.. وقال: لما ارتحلنا إلى حلب تقدم إليه أحد المريدين – وهو بالزاوية بعد انتهاء صلاة المغرب– وأهدى له هدية، وكان يجلس معه رجل بينه وبين صاحب الهدية "عداوة" فلما أحس بذلك الشيخ، التفت إليه وقال:" إذا أردت أن يكون لهديتك وقع في القلب، فحاول أن تنظّف نفسك من الأدران، فمن أحبَّ مخلصًا ً ملأ قلبه ووجدانه، أصبح لا يكره أحداً، وقد سئلت – يوماً – رابعة العدوية الصوفية: هل تكرهين إبليس؟ فقالت – على الفور – : لا، فقيل لها : ولماذا؟ قالت: إن قلبي ملأه حبٌّ، فأخذ بتلابيبه، وأصبح لايسع إلا هذا الحبّ العظيم، وهذا النور الوهَّاج، ثم قال الشيخ للرجل:أريد منك ألاَّ تُهدي إلى طريقتنا هدية قبل أن تُهدي إليها نفسك ثم أنشد:

أهديت روحي لمن أهواه خالصة ... يوم النوى علة بالوصل يجزيها
أستصغر الروح دون ما أردت ... وقال: هيهات، ما وصلي يساويها

ومضى يومان، وعلمت أن الرجلين قد حضرا مع الشيخ صلاة المغرب وتعانقا أمامه فقال الشيخ: هذا من فضل علينا وعلى الناس..!

(١٣)

لغني أيها الملك السعيد ..

أن البشر بصمات.. والخطوات تشبه توقيعات البشر ليس على الورق بل على الأرض، ترفع الصبايا أيديهن إلى السماء كلما أمطرت، الأطفال يخضبون ملابسهم بالمطر، يقعون منتشين بالفرح، تبصم الأرض على ثيابهم بالمطر المعجون بالأرض .. إنه مطر إلهي، وفرح إلهي، يجري الأطفال بعدما هرولت وراءهم عصا أحد الرجال.

أنظر من زجاج نافذتي، أرى المطر، ومازلت أكتب ليس لديَّ إلا أوراق زرقاء بلون السماء، أعطيتني إياها، لأكتب عليها رسائلي إليك.. لماذا أعطيتني تلك الأوراق؟ لتجبرني بصمتٍ علي الكتابة .. أكتب بقلم أسود كقلوب أمهات فلسطين ..

أنت الوحيد الذي يصدقني، لم أخن زوجي "المنذر" مع صديقه، إنما هي محض مؤامرة دبرها اللئيم مع أم زوجي وإخوته، ليتم طلاقي وقد حدث ... وقد سبق لهم أن دبروا لي دسائس ومضايقات أخرى،

استقدموا "السحرة" ليكيدوا لي ويكرهني "المنذر".. كنت أعلم بذلك، استعنت بالصبر والحكمة لمعالجة الأمور، لكن كل يوم كان يزداد حقدهم عليَّ، حتى أصبحت المعيشة معهم لا تُطاق.

كن على يقين أن الذي فرقنا (أنا وأنت) مؤمراة أيضاً أكبر منا، لكن حتى وإن لم تكن المؤامرة قد حيكت، كيف لنا أن نتوّحد، فالبعد المكاني بيننا تخطيه أشبه بالمستحيل كنت أعرف ذلك منذ لقائنا الأول بالقاهرة، جئتها صحفية فلسطينية تحضر مؤتمراً يهم صحيفتها، لم أكن أدرك أن القدر يخبئ لقائي .. كان شعوري مدهشاً منذ أول وهلة، أولته أنه إعجاب تلميذة بأستاذ يسبقها بخطوات، رغم أنك تكبرني بأعوام ليست كثيرة .. لم أكن أدرك أنه الحب يسحبني تياره رويداً.. رويداً. قطعت خيوط تواصلي معك عبر الهاتف والرسائل حتى نفترق بهدوء، ويشق كلانا طريقه، ربما تكون النهاية أفضل .. وعندما تزوجت من "المنذر" قلت إنه قدري وعليَّ الرضا به.

ليس لديَّ ما أقوله سوى الحزن، ثم الحزن، إذن لماذا أكتب إليك.. ربما لأني اعتدت على سماعك شهقات أحزاني ونزف مشاعري.

ما أكثر الكلمات التي لم تقلها في لقائنا الأخير بعّمان، لماذا صمت؟ تركت براكيني داخلي تنفجر، تسيل حممها تحرق كل ما فيَّ من سكينة، أحتاجك، أفتقدك كثيراً، أحتاج أن أبوح لك أكثر، تعال معي،

أريد أن أخرج من عزلتي، أريد أن أغادر هذه الغرفة وهذا السرير البائس، وأركض في طرقات قريتي. تعال معي، لأريك عالمي، كل درب، لابد أنك ستأتي يوماً، لكن حتى ذاك الحين لابد أن أصطحبك مرات ومرات.. أنظر الشوارع أكثر رحابة.. وأشجار الصنوبر، تحتضنها البيوت الحديثة مبنية من الحجر الأبيض، مرتبة بتناسق بناه فنان، مبتدئة من مدخل القرية حتى مدخل الحارة ووسط القرية القديمة، حيث تقع البيوت القديمة ذات الجدران السميكة.

سأصطحبك معي لنزور الدير، إنه في مدخل القرية الشرقي، هذا الأثر العتيق، الذي أبحر عمره في مركب الحياة من القرن الثاني عشر الميلادي إلى اليوم، يبهرك تقسيمه من الداخل إلى عدة أقسام، كل جزء منه مستقل بذاته، كما أن هناك نفقاً طويلاً اكتشفه أهل القرية بالصدفة عند حفر أحد الآبار، وهذا النفق يصل الدير بمنطقة الوادي .. أترى ذلك الجامع الكبير، إنه جامع الشيخ "سلمة" يقع وسط القرية، ويقال إن بداخله مقام الولي الصالح الشهيد "سلمة" كان مزاراً يتقرب إليه الناس بالدعاء، يقدمون له النذور، النساء بالأخص يذهبن إليه من أجل أن يبارك أولادهن أو لأجل الإنجاب، كان هناك شخص مسئول عن إنارة المقام كل ليلة، كان رجلاً ضعيف البصر، لكنه قوي البصيرة.

أمام المسجد غرفة واسعة كان أهل القرية يستخدمونها كمضيفة، وساحة كبيرة تقام فيها حفلات الأعراس، وليالي السمر، ويروي السكان

أن أصواتاً كانت تسمع من داخل الجامع في كل ليلة جمعة ويدعي البعض أنهم شاهدوا الشيخ سلمة يتمشى داخل الجامع.

أناس كثيرون في البلد قالوا أنهم رأوه وهو في حالة ذكر في المحراب، وهو لابس أبيض في أبيض.. وفي كل ليلة جمعة يخرج الناس، يسهروا في الساحة، ويطربوا على صوت دفوف الذكر، ويعتقدون أن أرواحاً طيبة من داخل الجامع تشاركهم.

مسجد "سلمة" وكنيسة "الخضر" متلاصقان يشتركان في جدار واحد، إلى الشرق مبنى الجامع وإلى الغرب مبنى الكنيسة، التي كانت تقام الصلوات فيها بانتظام.

لا .. لا تقف هنا، سيبدأ أبو عادل بالحديث معك حديثاً مطولاً عن عجائب المقام، وعن الكنوز التي يحرسها جنود الجان، لن ننتهي لو بدأ بالكلام.. ألقي عليه السلام فقط، لنمر من جانبه ولا نلتفت إليه، لا أريد أن تسمع الحكايا إلا مني.

هنا الجملونة أو"الخربة"، تقع جنوب القرية يسميها اليهود الآن "خربة حوت" ويدعون أنها تعود إلى أجدادهم السابقين، لها باب ارتفاعه متران ونصف وعرضه ثلاثة أمتار، بداخلها مدافن وقبور.

يعتقد أهل القرية أن بداخلها كنوزاً لكن لم يكن أحد من القرية يتجرأ على دخولها لاعتقادهم أنها "مسكونة" من قبل الجان، المغرب من المستحيل أن يذهب أحد من سكان القرية إلى هذه الجهة.

ما رأيك لو ندخل إلى مغارة القبور؟ كنت آتي إليها وحدي وأنا صغيرة .. رغم ما يشاع حولها من حكايات مخيفة، لكني كنت آتي لأكتشف، وأنتظر ظهور العفاريت، يخاف أهل القرية الاقتراب منها، خاصة في الليل لأنها تقع بالقرب من المقابر.

حكت لي جدتي أن رجالاً من البلدة كانوا يتحدثون عن المغارة، صار كل واحد منهم يسرد حكايا الجن والعفاريت التي يعرفها عن المغارة، لكن أحدهم قال فجأة "هذه المغارة لا يوجد فيها عفاريت ولا جن، هذا كلام غير صحيح، وأنا مستعد للمبيت فيها الليلة"، حينها قال له الرجال "لو كان كلامك صحيحاً واستطعت المبيت في المغارة سوف تجد في الأرض وتداً تدقه فيها هذه الليلة"، قام الرجل وذهب إلى المغارة وصار يدق الوتد، لكن- تعيس الحظ - يبدو أن طرف جلبابه علق في الوتد، فعندما أراد الحركة لم يستطع، ظن أن العفاريت تشده، جن جنونه، عندما جاء أهل البلدة صباحا وجدوه ميتاً وطرف عباءته مدقوق مع الوتد.

هل تعبت من المسير؟! لا أريد أن تستقل سيارة، أرغب أن تشاهد البلدة كلها سيراً على قدميك .. أتضحك حين تسمع وصف أحد الشيوخ لمجيء أول سيارة إلى القرية، حين كنت أجمع الأخبار والتواريخ عن القرية، كنت أجلس مع هؤلاء الشيوخ أحدهم قال لي: "سنة العشرين سمعنا ذات يوم صوتاً قوياً خرجنا نرى، لاقينا الإنجليز أحضروا للقرية عربة

بلا خيل وكان صوتها كاد يصل للقدس من شدته .. بعدها بسنة ونص تقريباً جاءت سيارة أخرى أكبر، وفي سنه الخمسة والعشرين جاءت عربات بخيل، والناس اشترت منها، وفي السبعة وعشرين دخلت القرية أول سيارة نقل يمتلكها رجل تركي .. وكان ثمنها يساوي ألف جنيه".

وفي الثلاثينات أخذ الناس في التوجه إلى منطقة جبعات شاؤول لركوب الباص من هناك، وفي عام خمسة وثلاثين أسس بعض السكان العرب شركة باصات ولكي يشجعوا سكان القرية على التعامل مع الشركة الخاصة بالباصات، وأصبح الباص يصل إلى البلدة من القدس ثلاث مرات يومياًوبانتظام، الساعة السابعة صباحاً ، التاسعة صباحاً ، والثانية بعد الظهر.

"بعد دخول الإنجليز، تحّول الناس عن العمل في الأرض إلى العمل في البناء وفي البضائع والبعض منهم كانوا يعملون مع الجيش البريطاني".

أسعد رضوان "عم أمي" قال: "عملت مع الجيش البريطاني عشر سنوات حتى سنة عام ثمانية وأربعين وكانوا يدفعون عشرين قرشاً في اليوم، ويدفعون لليهودي أربعين ولما كنا نسألهم لماذا تدفعون لليهودي أكثر؟ كانوا يقولون لنا أنتم ترجعون إلى بيوتكم وأرضكم كل يوم واليهود مساكين ليس عندهم أرض ولا بيوت".

- هل تفهمني حين أتحدث معك باللهجة الفلسطينية؟

أراك تومأ..

- حسنا سنواصل السير.. أنظر إلى هذا المبنى الأبيض الكبير، إنه مدرسة القرية للصبيان .. ابتدأ التعليم في القرية على شكل كتاتيب تدرس الكتابة والحساب والقرآن وكانت مدة الدراسة سنتين، كان الطالب يدفع كل يوم خميس أجراً أسبوعياً بسيطا يقال له "خميسية"، وهو عبارة عن نصف قرش أو بيضة ورغيف، كان هناك اهتمام وتشجيع من قبل الأهالي لتعليم أبنائهم.

كان أول شيخ درس في كتاب القرية الشيخ حامد حميدة أتي بعده الشيخ محمد عطية، طوال فترة الحكم التركي بقي الاعتماد علي الكتاتيب حتي فترة العشرينات، عندما فتحت أول مدرسة حكومية في نهاية العشرينات، والتحق بها في ذلك الوقت خمسة أشخاص فقط من قريتنا، ونظرا لسوء الأحوال المعيشية في تلك الفترة لم يكمل هؤلاء الطلاب تعليمهم، بل عادوا إلى العمل مع آبائهم في نقل الحجارة وغيرها من الأعمال.

في الثلاثينات، أصبح طلاب القرية يذهبون إلى مدارس القدس، وفي أوائل الأربعينات قرر أهل القرية أن يقوموا ببناء مدرسة ابتدائية لتعليم أبنائهم الذكور، ودعى إلى اجتماع في دار زيدان، واتفق على أن تكون قطعة الأرض المعروفة بموقع "وعر صالح الفوقاني" والتي كانت مشاعاً كانا لبناء المدرسة، وكتبت أوراق رسمية بذلك.. كّونت لجنة لجمع التبرعات، وفي صباح اليوم التالي كانت الحجارة جاهزه للبدء في البناء إذ تبرع بها

خميس زيدان، كان قد أحضرها لبناء بيت له كما تبرع الأهالي بـ "مراح النصراني" ملعباً لمدرسة الذكور.

وفي نفس العام أسس نادي النهضة وأقام النادي حفلة رصد ريعها لفتح مدرسة إناث، وقد تم إنشاؤها فعلاً على نفقة النادي، وكان مقرها في جامع الشيخ ياسين.

طبعاً ستسألني عن الصحف .. أنت لا تنسى مهنتك أبداً.. كانت الصحف اليومية تصل إلى القرية بشكل شبه منتظم في ثلاثينات هذا القرن، وكان من هذه الصحف جريدة "الجامعة"، والتي كانت تصل إلى "سلمة" كل يوم أو يومين تقريباً ، يحضرها أحد الشباب من القدس.

كان أهالي قريتنا يعتمدون كلياً حتى العشرينات من هذا القرن على الطب الشعبي والتداوي بالأعشاب والوصفات العربية، وكان من أشهر المعالجين الشعبيين الحاج جابر، عمتي قالت لي: "بقينا زمان لا بنعرف دكتور ولا دوى.." "المرمية" لوجع البطن ووجع الظهر يحتاج لامرأة أنجبت توءم أن تقفز على ظهره، أما من عنده انحباس في البول يشرب من عين "صوبا" والجروح يستخدم لها الطيوب أو القهوة.

كان في القرية عدة أشخاص حذقوا في تجبير كسور العظام، كان منهم، خميس زيدان، ومحمد درويش حميدة، ويقول أهل القرية إن أحد المجبرين منح شهادة فخرية من الدكتور "فوتة" من القدس لمهارته في تجبير كسور العظام، وأن محمد درويش حميدة منح شهادة من الدكتور عاقلة

تخوله مزاولة مهنة التجبير، ومازال الأخير يمارس هذه المهنة حتى هذا اليوم، رغم تجاوزه التسعين من عمره.

"عمتي ذاكرتها مازالت جيدة أكدت لي أنه في مطلع العشرينات جاء إلى البلدة دكتور اسمه "بيتينو" وكان معه يهودي آخر اسمه "ولنج" وكنا نذهب إليهم للعلاج ويأخذون شلن على المريض .. وبعد مجيئه بعام جاء طبيب عربي اسمه "حجار" وصرنا نتطبب عنده وكان يومها المبيت في المستشفى بريال "مجيدي".

هذه هي قريتنا ..

إلي أيّ مدى استمتعت في رفقتي .. أتراني نجحت في أخذك إلى عالمي.. خبرني متى سأدخل القاهرة معك ؟ أطوف شوارعها، وحواريها الشعبية، وأزقتها الضيقة .. لا أريد أن أزور تلك الأماكن التي اعتاد السياح زيارتها، أرغب مشاهدة تلك العوالم الأخرى النابضة والمختلفة عن الرؤى العابرة .. وسأكتب لك دائماً .. وأدرك شهرزاد الصباح، وسكتت عن الكلام المباح.

(١٤)

ألم أقل لك سيأتي وقت عندما تكونين معي تكون كل الدنيا معي..
ستدركين أنك لم تعرفي غيري..

نعم..أنا لا أقول لك حروفاً مطبوعة، تنفي عن الكلمات خفقة النبض وعمق الصدق، أعرف أنك ترغبين في أن تكون حروفي إليك ملكية لا يقرؤها غيرك.. لا يشم رائحتها غيرك..تريدين أن يكون عشقي متهوراً ، مثل طير بحر لا مثيل له في شكله وقوته وعنفوانه، يمنح بلاد روحك شيئاً من الفرح.

من الذي سيبكي إذا بكيتُ.. غيرك ؟!

من الذي سيبحث عن احتياجاتي ورغباتي ويلبيها قبل أن أطلبها.. إلا أنت؟

من القريب البعيد.. إلا وجهك؟

رائحة اشتهائي لك تفوح .. أين أنت وشلالك يتباعد، أي شهقة تعطش تلك.. إن لم ترويها بأريجك الوردي الباذخ .. كم أنا خائف عليك.. لو تدرين؟

ياحارقاً مسكوباً في دمي.. ساكناً في مسامي وأوردتي وشراييني ألقي نظرة على تاريخي .. لمن أقول وداعاً .. للحب أم الوهم .. للإيمان أم الكفر .. لمن أبث أشواقي المتأججة المعلنة والسرية .. مع من سأمارس كبريائي .. لمن سأحكي المرات التي فيها انزلقت وسقطت .. إن روحك عنيدة مثل روحي، لذا اخترتها لتسمع اعترافي .. بهدوء وإشفاق اعتصريني بين راحتيك، ربما أتطهر من الألم العظيم، وأمنح قوة عظيمة تشتعل أول

ما تشتعل كوميض في حضرتك، أقبض عليها حتى تنقذني وتنتشلني من الغرق.

دعيني أعترف، وأنا أردد مقولة صديقي نيكوس كازانتزاكيس "إن كل ما هو خير في حياتي منحتني إياه النساء".

(١٥)

قال لي الشيخ" علي أبو رفاعي" إن جدي وصف رحلته إلى فلسطين بقوله : هناك في تلك الأرض رأيتهم لا يخافون الردى .. إذا بكوا أوجعوا، وإذا خيروا ما بين السجن أو الموت اختاروا الشهادة، استقبلوا الموت بصدورهم "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم" فبكى بكاء شديداً .. فقال: ما يبكيك يا رجل؟ فقال: لا مال ولا بنون نافع..شاهدت طفلاً يقتل غيلة بين يدي أبيه .. تأثر من حضر مجلسه وعرفوا ما يعنيه.

قال الشيخ وقد بلل لحيته الدمع "تداركك الرحمن بعطفه وعنايته، فقد سلمت نفسك وفازت، وإلى الهدى مالت، فطب عيشاً ، واهنأ قرير العين فإن موعدنا يوم تبلى السرائر، فمالنا من قوة ولا ناصر ..

–يا مولانا وهل نستطيع صبراً على هؤلاء القتلة ..

وقال آخر : يا شيخنا ملوكنا هانوا، فأهاننا الصهانية.

قال الشيخ :لا أذكر إلا ما أحط به علماً .. من هانت عليه نفسه أهانه الخلق.

وأشار بيده واستطرد : هناك القدس مأسورة..كم من مهادنة وملاينة لعدوك كانت سهاماً مسمومة للأكباد لا تغضوا أبصاركم ولا سهامكم عن السوء والإساءة لكم.

جواد فتوحاتكم كثير العثار، راكبه يخشى الحاكم والسلطان.. أما هزتكم مواكب الشهداء؟ عيونكم جارية بدموع المخطئ، وتطلبون اللحاق بأهل الفضل والمروءة !

"أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون".

(١٦)

بلغني أيها الملك السعيد ..

ذكروا والله أعلم وأحكم، أن أول من سكن قريتنا فلاحون جاءوا من الجزيرة العربية، فخصوبة الأرض وتوفر المياه دفعت مجموعات أخرى من السكان للقدوم للقرية، فقد قدم من مصر مجموعة أطلق عليها "المصاروة" في عهد العثمانيين وبالتحديد إبان حكم إبراهيم باشا، وبعدهم جاءت مجموعات أخرى من البدو والمغاربة .. أول سكان للقرية عندما جاءوها وجدوا حجارة مرتبة ومقطعة بجانب ضريح الشيخ "سلمة" ،

حملوها وبنوا بها بيوتهم، ثم إن هناك بئراً قديمة جداً في البلد، فاختاروا الأراضي المحيطة بتلك البئر للسكن بها .. أخرجوا المياه بالجبال، ثم عملوا قواديس، كل القرية كانت تملأ منه.

ويقول كبار السن إنهم تأثروا كثيراً بالثوارت التي حدثت في سائر مناطق فلسطين وتفاعلوا معها، وكان لهم دور بارز، أثناء الفتوحات الإسلامية شهدت قريتهم غزوات كثيرة، منها معركة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم بين الكفار والمسلمين، وقع فيها قتلى كثيرون .. لكن أهل القريةلا يعرفون كثيراً عن الأحداث التاريخية التي وقعت منذ نهاية الفتوحات الإسلامية، حتى نهاية الحكم العثماني.

عندما كنت أعد موضوعاً صحفياً لينشر في الجريدة التي أعمل بها عن بداية قدوم الإنجليز ورحيل الأتراك عن بلادنا سألت الشيخ عبد الواحد محفوظ إمام مسجد "سلمة" عن تلك الفترة فقال: يا ابنتي بعد رحيل الأتراك وقدوم الإنجليز شهدت قريتنا انتعاشاً تجارياً ملحوظاً.. قريتنا شاركت في ثورة ١٩٢٧ و١٩٣٦ و١٩٤٦ وكان للسكان دور كبير في تهيئة الثوار وتنظيم الأفراد في استحكامات داخل القرية ضد الاستعمار .. وكانوا يعتقدون أن الله يساعدهم في معاركهم ضد اليهود، لوجود ولي صالح مدفون في بلدهم، إلى حد أنهم يعتقدون بوجود جنود من عند الله يساعدونهم في القتال.

كان أي فرد من القرية مستعداً لبيع أي شيء يملكه أو تملكه أسرته لشراء السلاح والدفاع عن القرية.

ويروي الشيخ عبد الواحد أنه عند هجوم اليهود على قرية "الخيرية" المجاورة لقريتهم، وطرد أهلها منها، هرع رجال قريتنا بشكل جماعي لنجدتهم، والتقوا برجال "الخيرية" وراحوا يشتبكون مع اليهود.. وقتل من رجال قريتنا كثير، الله يرحم سعيد مجاهد وشامخ هنية وقنديل محمود وصابر سليم.

- في أي سنة حدث هذا؟

- في سنة ١٩٤٧

ويستطرد إمام مسجد سلمة وهو يساوي لحيته بكف يده اليمنى وهو يتحدث بلهجته الفلسطينية ذات اللكنة القديمة :- سكان بلدتنا كانوا باسلين يا ابنتي يهبون لنجدة من يطلبهم، حتى الدول العربية كلها أعطوها لقب سلمة الباسلة، مثل مصر كانوا يقولون عن أهل سلمة بواسل، وراحوا من عنا لجنة، أربع رجال مع الأمام اللي كان الشيخ، راحوا على مصر يجيبوا سلاح ولموا من البلد وأخذوا معهم مصاري. أعطتهم مصر سلاحاً بدون مقابل لسلمة الباسلة علشان هم أبطال وشجعان وثورجية" .

فقد عرف عنهم أنهم كانوا يعطون أراضي بدون مقابل للغرباء العرب مثل الغزازوة والمغاربة والمصاروة "علشان هيك إجا سلمة ناس كثير

من يافا، وسكنوا ناس مغاربة، شرط أهل سلمة يعطوهم أرض بدون مصاري، تبرعوا للمغاربة حوالي عشر دونمات جنب البيارة اللي جنب الأسفلت".

وإن أي زائر من القرى المجاورة أو البلدان المجاورة يزور القرية يجلس في أحد الدواوين الموجودة أو الديوان الموجود في المدرسة وجميع مستلزمات الضيافة تكون متوفرة له، خصوصاً أولئك الذين يأتون لمشاركة أهل "سلمة" القتال ضد اليهود في المعارك الأخيرة، ولكنهم كانوا لا يشاركونهم في القتال إلا إذا احتاجوا فعلاً لهم، وأثناء ذلك كانوا يكرمون أحسن تكريم.

وأضاف الشيخ عبد الواحد بعد أن أخذ تنهيدة أعادته لزمنٍ ولى عندما يموت شخص من القرية حتى لو كان طفلاً صغيراً لا يتجاوز العام الأول من عمره يترك الأهالي عملهم لمواساة أهل الفقيد، ويؤجلون أي عرس لمدة أربعين يوماً..

يقول مصطفى رضوان : ظللت أعمل في القسطل سنة ١٩٣٢ إلى أن جاءني خبر وفاة ابني وكان عمره سنة، عندما وصلت إلى داري وجدت البلد فارغة من أهلها، ووجدت الشيخ محمد عطية قد دعا الأقارب إلى بيته بسبب غيابي، أيامها كان الناس متآلفين ويساندون بعضهم في كل مناسبة وكان في القرية مضيفة للغرباء، عامرة دائماً بالضيوف، وصاحب المضيفة كان يستمتع بكونه يستضيف الغرباء، يلاقي الضيوف، يرحب

بهم، وكان لتكريم الضيف يذبح له خروف ويقدم له الرأس ويزينه بالبقدونس، ليعرف الضيف أن صاحب المضيفة ذبح له خروفاً.."

وأدرك شهرزاد الصباح، وسكتت عن الكلام المباح.

(١٧)

" أمنية صفوان "..

هل يجب عليَّ حينما أكتب عنك أن أستعيد مجداً اندثر؟ أو أنفض التراب عن أوسمة ونياشين قديمة اعتلاها الصدأ ؟ هل عليَّ أن أشمت فيك وأعلن بطولتي، لأني لم أحن قامتي أبداً.. صدقيني أنا لا أفكر في المجد ولا في النياشين .. ما أفكر فيه ويشغلني أنك أضعتني ولم تجعليني أستريح من وعثاء سفري ؟

أنت .. ما زلت أنت بصوتك المرتعش.

– "بعد أكثر من عشرين عاماً مازلت مجروحاً .. وتريد أن تصفي حسابك معي ؟ "

– أبداً ليس بيننا حساب أو عتاب، ليس لديَّ دين لأسدده لك، حتى الألفة الهامسة، والحب المراهق البكر الذي أعطيته لك، لا أريد مقابلاً له.. لن أسألك عن اللوعة أو الغرام؟ لماذا تخليت عني؟ سؤال حتى لا يهمني أن أطرحه عليك .. أو أطرحه بيني وبين نفسي.

لم أعد أطاردك بالحب منذ أكثر عشرين عاماً، أطلقت حريتك، وارتحلت منذ أن استسلمت ليد غازيك .. رغم أننا عشنا في بلدة واحدة .. ودرسنا في مدرسة واحدة .. أتذكرين كيف التقينا أول مرة.. أتذكرين طعنتك لي؟ أتذكرين بوابة الجامعة الكبيرة حين وقفنا تحتها وأنا أودعك – وأنت تنظرين إلّي نظرة ساحرة – " أنا أشرف رجل عرفته في حياتك .. الرجل الأوحد الذي أحبك بصدق .."إياك أن تسيئي إلى ذكراه .. إياك أن تسيئي إليه مع زوجك أو مع أطفالك .. إذا طالعت صورته أو مقالته في صحيفة أو مجلة ..لا تسيئي إليه أبداً ..لا تزّوري الحقائق".. يومها ابتسمت أومأت برأسك، ثم انسحبتُ..ابتعدت عنك هارباً .. بعدها لم أرغب أبداً أن أرى وجهك في حياتي.. ظل الماضي البريء مغروساً في مخيلتك،نابتاً في حاضرك .بداخلك غُصة أبدية، لا شفاء منها، وظل بداخلك ألف سؤال وألف لغز .. لكن من سيجيبك.. ومن سيحل ألغازك؟

كان على غازيك أن يلتقيك .. لقد هتف كل منكما باسم الآخر .. هكذا رسم لك القدر بعد أكثر من تجربة انتهت بهزيمتك وتركت مرارة في حلقك.. هم الذين اختاروا .. وليس أنت .. أحدهم اختار جمالك الأخّاذ واخترت حسابه في البنك، وآخر أبحر في سحر عينيك الفاتنتين وتقاطيع وجهك الدقيقة التي تشبه نفرتيتي واخترت أنت الابحار في عالمه

لتعرفي مدى نفوذه ومهنته فائقة الربح.. كانت محصلة صفقاتك هي الخسارة.. لفظوك على أول طريق، لأنهم اكتشفوك، واكتشفوا خسارة الصفقة مبكراً إلى أن تزوجت كان بينكما الماضي يعيش .. ماضيه الذي يؤرقك، يفسد صفو العلاقة .. ماضيك المغروس في خاصرته بالشك وعدم اليقين.

- " أين أنت ؟"

- ما قيمة أن أجيبك .. لك حياتك وعالمك .. لك أسئلتك المؤرقة ؟!

"أمنية" .. لم أهرول في أعقابك .. لم يبق شيء مني لديك .. قلت لهم مرة: لكل منا طريقه.. ما أروع خروجي عن طريقهم .. وأنت السبب.. أنت الزيت في جوف القنديل .. إلى أن استبدلت أخرى الزيت والقنديل أيضاً.. ها أنا أضحك من نفسي: لقد ذهبت بعيداً أبعد من حدود مدرستي وجامعتي وعوالمك الضيقة.. رغم أن الجرس لم يدق بعد لأخرج من الصف ..

معك الآن تذكرة سفر عليك بالسفر .. لا تسأليني عن تذكرتي، ألا تعلمين أن معي تذاكر سفر وإياب لكل بقاع الدنيا ؟ معي مفاتيح لأبواب لم أكن أتخيلّ أنها ستكون معي يوماً ..

أمنية .. لست أنت منتهاي لقد ضعت .. وليس هناكَ من يسير وراءك .. وليس هناك فنار يهديك .. أكملي الرحلة.

(١٨)

الليل أرخى سدوله على صفحة النيل .. البرد قارس، رغم ذلك لاذ الشباب إلى المقاهي فراراً من الوحدة والملل، قال لي أبي: "إن البطالة تجعل شباب البلد تائهين بلا هدف" .. تطلعت إليهم وأنا أمر بجوارهم وهم يشربون المشروبات الساخنة ويدخنون "النراجيل" بشراهة.. عبرت شارعِ المقاهي، قاصداً الجامع الكبير، حيث يجلس هناك بعد صلاة العشاء يتضرع بأدعيته وأوراده، ابتسم في وجهي حين لمحني داخلاً، فجلست أمامه، بين يديه، قال الشيخ "أبو رفاعي": أتريد أن تعرف كل أسراره مني ؟! ثم ضحك وأنا أومئ برأسي .. صمت برهة ثم أردف قائلاً: قبل رحيله بعامين، على ما أذكر كان في أحد الأيام الأُول لشهر شعبان قال لي بعد صلاة الفجر:

– لقد زرت فلسطين بالأمس والتقيت هناك "سلمة" الذي استشهد فيما بعد .. وقد حارب في معارك الفتح الإسلامي التي دارت على أرض فلسطين .

– تقصد أنك زرت مقام أو قبر "سلمة" الذي سميت القرية باسمه.

– أقول التقيته وجها لوجه وسلمت عليه بشحمه ولحمه ودمه..

قال له أحد تلامذته وكان حاضراً مجاوراً لي في جلستي معه :

– يامولانا أنا التقيت واحدا فلسطينياً من سكان هذه القرية .. وقال لي حكاية يتوارثها سكان القرية ..

صمت الشيخ وقال له: هات ما عندك من حكاية .. (أخذ الشيخ نفساً طويلاً).

حكى لي كيف استشهد "سلمة" في وادي اللحام.

"صارت معركة في وادي اللحام، النبي كان يحمل البيرق "العلم" قال لأم سلمة، يا أم سلمة بدي سلمة، بدي يروح معي المعركة، قالت بخاف عليه، ماليش إلا الله وسلمة أحسن من إنه ينقتل، قلها بدي سلمة بأخذه سالم وبرجعه سالم بإذن الله. أخذه معاه في المعركة، هناك بقي حرب سيف، الضرب بالسيف، انقطعت رقبته، لما انقطعت رقبته النبي زعل شوي وقال لا حول ولا قوة إلا بالله، قلنا لأمه بدنا نأخذه سالم ونرجعه سالم، هلحين مات، يا رب دخيلك ترجعه زي ما كان، بإذن الله حط رقبته وطاب، يعني الله حط الروح فيه، لما روح قال لأمه أخذته سالم ورجعته سالم" .

ويضيف : بعد رجوعه سالماً إلى أمه ورأته شخصاً سليماً معاف، عاد واستشهد ثانية وسقطت رأسه عن جسمه واستشهد في ذلك الموقع، وقد بنى أهل القرية لـ "سلمة"قبراً وسط البلد وبنوا جامعاً يحيط بالقبر، وكان ذلك المسجد بمثابة مقام ومزار لسكان القرية وسكان القرى والمدن المجاورة.

ولـم يختلـف اثنـان ممـن قـابلتهم مـن أهـالي سـلمة حـول هـذه الروايـة، حيـث إن الجميـع يعتقـدون بأنهـا روايـة حقيقيـة وأن تسـمية قريتهم يعود إلى هذه الرواية ..وكانت المحبة له عظيمة جداً ، هناك من أهل القرية من زاد على ذلك، قد كانوا يتباركون بذلك الولي إلى حد الاعتقاد بأنه يشفي كل مريض.

ضـحك الشـيخ عـوض وقـال : علـى أيـة حـال الأرواح جنـود مجندة.

(١٩)

بلغني أيها الملك السعيد ..

أن البارحة كان عرس فاطمة .. العرس الفلسطيني مختلف عن أي عرس عربي آخر .. عرس يقام من صلب الجنازة، ليس أكثر من شهادة فرح أن الفتاة ستتحّول إلى أم، وستنجب أطفالاً تروي لهم أسطورة الوطن، ثم تتركهم للحياة ..

ماذا أكتب لك ؟ مزاجي تحسن قليلا، انقطعت عن الكتابة لك أياماً، لانشغالي مع "فاطمة" بترتيبات الزفاف، سأخبرك بكل ما حدث، سأنقل لك بعيني تفاصيل ذاك الزفاف..

ابتدأت زفة العروس من بيت العريس مروراً بمنطقة البادر، ثم ساحة الشيخ "سلمة"، حيث تقام "الدبكات" حتى ساعة متأخرة من الليل ..

وفي أثناء الزفة كانت النسوة يرددن أغانٍ تمجد العريس وأهله:

وعندما وصلوا إلى بيتنا كانوا يغنون:

قومي اطلعي قومي اطلعي ويش همك   واحنا حطينا حقوق أبوك وعمك
قومي اطلعي قومي اطلعي من حالك   واحنا حطينا حقوق أبوك وخالك

قد يتبادر إلى ذهنك أن تسألني عن تقاليد المهر والشبكة.. المدهش أن لهما قوانين خاصة داخل القرية.. هذا القانون يسير عليه كل السكان، يبسط مسألة الزواج، فلا مهر كثير ولا خسارة للعريس.. هناك لجنة انتخبها أهالي القرية لمتابعة إجراءات زواج أي من أبنائها، فحدد المهر بمبلغ محدد يتم الاتفاق عليه بين الطرفين ويدفع لوالد العروس ويقوم الوالد بتأثيث البيت وشراء جميع مستلزمات العروس من هذا المبلغ، ولم تكتف اللجنة بتحديده إنما عملت على متابعة هذه الإجراءات إلى حين انتهاء حفل الزواج، إذ كانوا يذهبون إلى منزل والد العروس ويطلبون منه ومن العريس أن يقسموا على "المصحف الشريف" أن والد العروس لم يأخذ أكثر من المبلغ المتفق عليه، وأن العريس لم يدفع أكثر من ذلك.

وكانت تحصل أحياناً بعض المخالفات وعدم التقيد بما تفرضه اللجنة التي تتخذ العقاب المناسب بحق المخالف مهما كانت منزلته دون أي

تمييز، أمي أخبرتني أن هذه العادات كانت على أيامهم وأيام أمها أيضاً، وقصت علي حكاية ابن عمها، وكيف تصرفت اللجنة معه عندما حدث تلاعب.. قالت وهي تروي الحادثة بمتعة من يتلذذ بذكرياته:

"كان ابن عمي يؤدي الخدمة العسكرية على زمن الحكم التركي، وأخذوه أسيراً إلى مصر، وكانت زوجته لا تنجب وبعد أن عاد وأمضى معها سنوات بلا إنجاب ذهب بمعاونة أخيه محمود في طلب الزواج من فتاة عمرها ستة عشر عاماً، جميلة جداً، وما من فتاة تضاهيها في البلدة، وافق أهلها على الخطوبة، لكن أمها قالت له وكيف أزوج ابنتي لرجل كبير ومتزوج" وكانت الأم طماعة، وأدرك هو غايتها فقال لها سراً "وافقي وسأعطيك عشر ليرات شرط أن لا تعلمي أحداً باتفاقنا" لكن في اليوم الثاني، وكان الشيخ محمود أخو العريس في منزل فتاة أخرى يفاوض أهلها على الخطوبة لأحد الشبان وإذ بالأهل يطلبون خمسين ليرة، أي بزيادة عشر ليرات عن المهر المتفق عليه، فاستغرب الشيخ محمود من تصرف الأهل، وقال لهم "ابنتكم مثل سائر البنات، لمَّ الزيادة في مهرها حينها قال له الأب: "أصلح نفسك أولاً يا شيخ محمود" وكان التلميح عن حكاية أخيه بأنه دفع خمسين ليرة، حينها استدعى الشيخ محمود أخيه ووالد العروسة، فأقسم والد العروس أنه لم يستلم إلا ثمانية وثلاثين ليرة .. لكن لا أعرف إذا كانت أمها أخذت شيئاً من العريس "ولما تقدم العريس أقسم أنه دفع زيادة عشرة ليرات للأم، عند ذلك الحدث أمر الشيخ

محمود والد العروس بإعادة العشر ليرات وحكم على العريس بدفع ليرتين جزاء للصندوق".

نسيت أن أخبرك أنه من عاداتنا الفلسطينية في الأعراس أنه لا يتكلف العريس أي شيء، إنما تتقاسم حمولته نفقات زواجه، أقاربه يساعدونه بالنقوط لذا تكون تكاليف الزواج الباقية عليه سهله، لأن كل واحد من أبناء العمومة كان يقدم شوالاً من الأرز، ورطلاً من اللحم، بالإضافة لدينارين نقوطاً للعريس. لكن فيما بعد تغّيرت هذه العادة عندما لاحظنا أن الطعام يفيض كثيراً، وصار الأقارب يعطون العريس المال مباشرة كمساهمة منهم في الزواج بدلاً من الأرز واللحم الذي لن يستفيد منه شيئاً.

استمرت سهرة عرس "فاطمة" ثلاث ليال، يقيم كل منها أحد أقرباء العريس ويتحمل جميع نفقاتها.

ومن عادة شيوخ القرية "الختيارية" أن يبقوا في بيت العروس حتى خروج العروس تلافياً لأن تحدث أي مشاكل.. وقد تستغرب وتتساءل أي نوع من المشاكل ممكن أن تحدث في زفاف.. أحياناً يطرأ خلاف عابر بين الأسرتين يعرقل إتمام العرس، كما حدث في زفاف ابنة جيراننا "فردوس" عندما لاحظ الأعيان أن العرس تأخر كثيراً وأن العروس لم تظهر فأرسلوا في سؤال أهلها عن السبب، فأجابوا بأن عم العروس يصر على أن يأخذ عشر ليرات إضافية، وأنه أقسم بالطلاق أن لا تخرج

العـروس مـن البيـت إن لم يأخـذ العشـر لـيرات، فقـام أحـد الرجـال وقال: سأدفع خمس ليرات، والعريس يدفع خمس ليرات ولا نؤخر العرس" حينها خرجت العروس لتجد أنهم دفعوا لعمها المال الذي طلبه، لكن المضحك أن الذي دفع الخمس ليرات ذهب إلى اللجنة مشتكياً" فأرسلت اللجنة إلى عم العروس صباحاً" وطلبت منه أن لا يغادر منزله، لأنهم سيأتون لزيارته، وبعد جلوسهم وحين قدّم لهم القهوة رفضوا شربها، فأدرك العم أن هناك ما يودون قوله، فحكوا له حكاية الرجل الذي احتج على الخمس ليرات التي دفعها وطلبوا منه إعادة المال فوراً" .

أما زفاف "فاطمة" فتم على خير ما يرام، بمباركة جميع الأطراف، فاطمة طلبت مني أن أبلغك تحياتها .. صارت تعرفك من كثرة ما حدثتها عنك .. أمي أيضاً نظراتها تسأل عن حقيقة علاقتي بك، وتستفسر بطريقة خفية عن سر ارتباطي بك.. وتكاد تقول لي: أنت تحبينه حقا لكن أي مستقبل ينتظر هذه العلاقة ؟!

لا جديد لديَّ.. أذهب إلى عملي، ثم أعود إلى غرفتي، عزلتي الاختيارية، إلى كتبي وأوراقي.. أقرأ، أكتب، أحاول أن أدّون لك كل خربشات الحياة، وكل ما يترك في نفسي من أثر..

نسيت أن أخبرك أن هناك جماعة من الشبان والشابات الفلسطينيين اتصلوا بي عن طريق زملاء في الجامعة في دعوة لتأسيس تجمع للجيل

الفلسطيني الشاب، وربما يكون هذا التجمع نواة لحزب سياسي جديد، لم ألتق بهم حتى الآن..

مازلت أحاول لململة شتات ذاتي قبل أية قرارات مستقبلية.. إلى اللقاء، ولتهنأ حيث كنت..

وأدرك شهرزاد الصباح، وسكتت عن الكلام المباح.

(٢٠)

"نهى فتحي"..

إياك أن تديري رقم هاتفي اليوم ؟ إياك.. سيستيقظ المارد الذي خذلك يوماً، وسيصرخ فيك: أين أنت؟! ستضيع الكلمات من بين شفتيك، وتبتسمين بينك وبين نفسك وتحركين حاجبيك بفرح.. ها أنت معي الآن صوتك لصوتي، مما تخافين، أن أعيد قص ذكرياتنا المشتركة عليك ؟ أن أقول لك أنا أول رجل في حياتك وفي روحك وفي جسدك ؟ لا تخافي لن أسألك أي سؤال أو أستحضر أية ذكري أو أبوح بأي عتاب.

في يوم ما، حار في طقسه.. التقينا في رواق الجامعة.. هل تذكرين؟ كنت تضمين مذكراتك الجامعية إلى صدرك وعدة كتب ودفتر صغير مكتوب على غلافه "نهى فتحي" الفرقة الثالثة.. هل تذكرين رأيك فيَّ

الـذي قلتـه لـ" رضـوان.. ".. " صـديقك اسـتفزازي جـداً، يعتقـد نفسـه دنجوان.. لكنه يبدو طفلاً بريئاً "..

وفي اليوم التالي.. كنت أراقبك من بعيد وأنت واقفة في الرواق – في مكانـك المفضـل– تقلبـين في كتـاب، وكأنـك تـرين صـورة هـذا الفـتى الاستفزازي بين صفحات كتابك وتترقبين خروجه، لتعانق عيناك عينيه، ويدلف معك في حوار– ربما أنت في حاجة إليه –كنت خارجة منذ أيام من تجربة حب قاسية.

تعانقت أيدينا، وأنت ترتجفين رجفة لم تعرفيها من قبل، ونحن نعبر إشارة مرور كوبري الجامعة .."لا خروج من حبي الآن" نظرت إليَّ نظرة شاردة، وكأنك تستشرفين المستقبل.. هناك – خلسة – من كل البشر طوقتك بذراعي، التصقت بك، وصعدنا معا.. أخذنا نصعد، اكتشف كلانا الآخر .. على صدري وضعت رأسك باستكانة حمامة وديعة طاردتها نسور كثيرة.

هل كان عليَّ أن أبقى معك كل العمر؟

ما الذي سأقدّمه لك يا "نهى" غير نزقي وشبقي العارم، الذي يشعل الأرض ناراً وتفشل في إخماده كل سلطات الدنيا..

فقدتك برعونة.. مازلت أندم منها، وألعن غبائي، وافتقدتني، افتقدت حرارتي..

وبعد سنوات التقينا " نعم هو أنا، وأنت أنت ".. أنا مقتحم أسرارك، ومفجر شبقك، أستاذك الأول في معرفة أسرار الحب..

- ما زلت تبدو مهموماً كما عرفتك من سنين، لكنك كبرت أكثر من اللازم.. هل هي السياسة أم منصبك الكبير ؟

ابتسمت وسألتها بمكر:

- هل نسيتني؟

- إن كنت قد نسيتني فإني نسيتك.. وإن كنت مازلت تتذكرني فإنك مازلت تسبح في شراييني وتعشش في دمي.

- لاحظت أنك نحفت قليلاً.

- ....

- هل أنت سعيدة.

أطرقت برأسها وقالت: لا أعرف

- وزوجك

- رغم مرور أكثر من خمسة عشر عاماً على زواجي لست إلا خزاناً يفجر فيه رغباته لا أكثر.. يهتم بنفسه.. بأناقته.. بحاجاته، أنا لا أعنيه بيننا الآن أطفال وسنوات طويلة من العشرة.. أبي مات.. وأمي تبعته بعام.. أنا في حاجة لك .. إلى كلمة منك.. إلى حرف.. قالوا " الباب اللي ييجي منه الريح سده واستريح " كيف السبيل إلى سد أبوابي، وكل أبوابي أقفالها

معك.. حاولت الانتحار أكثر من مرة.. هل عليَّ أن أقضي بقية عمري في معاناة ؟!"

- لديَّ موعد

- مع امرأة جميلة.. أليس كذلك؟.. حينما تكون معها لا تتذكرني.

ضحكت ضحكة اخترقت صدري.

- خبريني، حتى الآن لم أجد إجابة لسؤال يلح عليَّ كلما تذكرت تفاصيل علاقتنا.. كيف قدّمت لي صديقتك؟

- لأنك كنت تريدها!! وحتى تنكسر صورتك أمامي.

- لكني لم أقربها.

- أعلم .. لقد حكت لي كل ما حدث (ابتسمت) يا لك من نبيل. "علاقتي بك قدر لم أستطع الفكاك منه.. طوف الدنيا، وإن قابلت امرأة مثلي، ستعود إليَّ حتما، حتى وإن افترقنا.. ستعود إليَّ كلما كنت في حاجة إلى من يسمعك.. إلى من تشكو له، يأخذك في صدره بحنان وأمومة.. لكن وقتها - يا فارسي- سأكون بعيدة عنك.. سرت في طريق آخر غير طريقك.. ستعذبك تذكاراتي البسيطة، والتي قد تبدو تافهة.. كازينو النيل، الباص رقم ٧٦، مقهى علي بابا، ميدان التحرير، أغنيات فريد الأطرش، قرطاس الترمس.. عندما تكتب قصة جديدة.. من سيكون قارئك الأول ؟!

- هل تذكر؟!
- أريدك بلا مهر، ولا شبكة، ولا مؤخر صداق.. أريدك فقط.
- لا تكوني متهورة.
- غيرك جاء يرغب في الزواج، أمس وافقت أمي.
- إذا أعجبك وافقي..
- لم أره حتى الآن معرفتي به سطحية، أمه صديقة أمي.
- التقي به ربما يعجبك، مشواري طويل.. لا تراهني على مستقبل مجهول.
- هذا رأيك.

" العجيب أنك حينما التقيت به، صرتما أصدقاء، لا أعرف ما السبب، حتى بعد مرور كل هذه السنوات، أسأل نفسي ما السبب؟ ربما الذي فرّقنا ظروف حياتية أكبر من قدرتنا على مواجهتها، أنت تكبرينني بسنوات والعُرف لديكم أن البنت تتزوج مبكراً وفي أحسن الأحوال بعد الانتهاء من دراستها مباشرة، وهذا لم يكن بوسعي، كذلك ظروفي المعيشية الصعبة، وطموحي الكبير للعمل بالكتابة والصحافة.

دعيني أقول لك سراً لم تعرفيه.. عندما دخلت المستشفى، لتضعي مولودك الثاني، وأصبت بنزيف حاد، وقال الأطباء إنك بحاجة إلى نقل دم من فصيلتك.. على الفور قدت سيارتي كالمجنون إلى بلدتك التي تبعُد عن محل إقامتي أكثر من ثلاثمائة كيلو متر، كان لا يهمني شيئاً سوى حياتك..

ولما وصلت المستشفى، عرفت أنك وضعت مولودك وأنك صرت بخير..
قفلتُ عائداً، لم أرغب أن أراك وأنت مجهدة.. المهم أنك بخير".

نهى.. عندما أدركت فقدك.. بكيتُ كثيراً.. عضضت على يدي ندماً.. سكرتُ.. ضعتُ.. عرفتُ نساءً كثيرات، لكن لم أعرف حنانك أو صدقك أبداً.. ما جدوى اعترافي الآن ؟!

(٢١)

هل أحب الشيخ عوض زوجته الثانية "فوزية" كل هذا الحب، رغم أنه يكبرها بأكثر من عشرين عاماً، تزوجها ثلاثة أعوام فقط، اكتملت برحيلها عن الدنيا بعد مرض ألم بها لمدة عشرة أيام، كل يوم بعد صلاة العشاء يجلس بجوارها يضع يده على رأسها ويقرأ لها آيات من القرآن الكريم، ويهمهم ببعض مفردات مبهمة، لا يعلمها أحد إلا هو. قال الشيخ عوض لأمي وقت أن كانت فوزية مريضة: إنه رآها في منامه تلبس ثوباً أبيض مطرزاً بالنجوم.

الأنوار تخبو والسماء تصفو، الذكريات هاهي تقبل مسرعة، تتداخل وتتشابك كسحب الشتاء .. بعد صلاة العشاء مباشرة أمسكتني أمي من يدي، ذهبنا لنعود فوزية في بيت أمها، فقد أصرت أمها منذ يومين أن تأخذها إلى بيتها، فهي سيدة كبيرة في السن، لا

تستطيع أن تأتي يومياً من بيتها.. تستحي أن تبيت مع ابنتها في وجود الشيخ عوض.. قالت أمي: سنذهب أنا وأنت إليها، ثم يأتي إلينا الشيخ بعد صلاة العشاء.. كانت فوزية شاحبة، عيناها غائرتان بعض الشيء.. أمسكت بيدي وأنا أسلم عليها وهي نائمة، يدها مازالت في يدي.. تيار خفيف كوميض الشمس يسري في عروقي .. كان وجهها يتفصد عرقاً، المحاليل معلقة بجانبها، والإبرة مغروسة في ذراعها.

دخل علينا الشيخ "عوض" وهو يهمهم بعد أن ألقى السلام، وجلس بجوارها وقال: اذكروا الله.. ردت أمي وهي تغالب دموعها: لا إله إلا الله.. أم فوزية ذهبت لغرفة الاستقبال تستقبل إحدى جاراتها التي جاءت تسأل عن صحة "فوزية".

قالت فوزية: ادع لي يا شيخ عوض

قال: يا صاحب الملك.. نجنا مما نخاف.

قالت: هل سأعود سالمة وأشفى من المرض.. هل ترى ذلك ؟

– الموعد آت لا ريب.. أنت امرأة صالحة يا فوزية ادع أنت لي ربما تكونين مستجابة الدعوة، فالوجع عطاء.

أغمض عينيه وهو يسبح.. وصوتها المتحشرج الهامس يصل سمعي "ادع لي يا شيخ عوض.. ادع لي ياشيخ عوض".

كنت على يقين بداخلي أن جدي يدعو لها في سره، وإنها تمتلك قوة جبارة تجاهه. كنت أحاول أن أتمالك نفسي وألا أبكي.. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي رأيت فيها "فوزية".

هل ما حدث كان حقيقياً أم إنه مجرد وسواس شيطان؟ عاد تكتنفه رعشة.. وبناته كن يشهقن.. هل يتعجلن رحيله.. أم يطمعن في رضاه؟ قال لهم نباش القبور: إنه رأى بأم عينيه "الشيخ عوض" وهو ينبش قبرها ويخرج الحجارة حجراً حجراً، ويخرج وكان لم يمض على دفنها إلا أسبوعان، يحتضنها بكفنها ويبكي، وظل كذلك وقتاً.. لا يدري بأي حساب يحسب، ثم أدخلها قبرها، وكأنه يشعر أنها أصبحت راضية مرضية وأخذ يعيد ترتيب القبر أفضل من سيرته الأولى.. وعندما همَّ بالانصراف وقع مغشياً عليه..

– وفي أي وقت كان هذا ..
– قبل آذان الفجر.

قال النباش: ساعتها اقتربت منه، أخرجته من وسط صفوف المقابر، ولم أقدر على حمله، فذهبت إلى دار الشيخ عبد الرحيم وطرقت بابه وأخبرته بما حدث وجاء معي وحملناه إلى داره.

ولما سألت بناته الشيخ عبد الرحيم عما حدث: قال إنه لا يدري ماذا حدث؟ "سألنه عن المكان الذي وجد فيه أباهم: قال إنه سقط في الجامع قبل صلاة الفجر".

الحلقة الصغيرة المستديرة تكبر وتتسع.. تتماوج..تنفتح يميناً ويساراً..بدأ الإيقاع خافتاً، ثم بدأ يتزايد كلما اتسعت الدائرة والتحم بها أشخاص جدد.. ارتفعت الأصوات من الحناجر.. يتناهي إلى السامع أنها تخرج من حنجرة واحدة، كأنها أنشودة تتحّول إلى موال حزين.. يتأّوهون في كنف صوت المقدم.. تتوحد النغمات، تصير نغمة واحدة قوية حماسية شجية.. تصعد في الذرى تُعانق نجمة بعيدة.. تلتحم مع مجرات وكواكب، تواصل الصعود في العمق.. هناك حيث لا بياض ولا سواد.. لا نور ولا ظلمة.. يخفت الصوت إلا من صوت واحد فقط.. يتخلى الجسد عن كثافته.. والعقل عن منطقه.. والبيان عن الحوار.. تلتقي الأرواح خفيفة، شفافة خفاقة.. حينها وقع جدي مصروعاً.. رشوا عليه الماء.. فلم يفق تركوه، انصرفوا واحداً واحداً.

عندما ذهبوا لصلاة الفجر لم يصدقوا أعينهم.. إنه "الشيخ عوض" صوته يسبقهم بالآذان للصلاة.. لما سألوه لم يجب.

(٢٢)

أيها الملك السعيد :

قريتي تبدو من بعيد، كأنها غابة كثيفة، لا يستطيع الإنسان أن يشاهد المنازل أو المباني والشوارع إلا عندما يقترب منها.. شيّدوا مدينة حديثة على أنقاض قريتي التي أرغم أهلها على مغادرتها بعد الاحتلال. قريتي اليوم مدينة حديثة، بناياتها بيضاء، تغطيها الأشجار من كافة الجهات، بحيث تبدو للقادم إليها من بعيد، كأنها لوحة بالغة الجمال.

أجزاء من القرية القديمة مازالت قائمة إلى اليوم، مبانيها قد تهدمت أو آلت للسقوط، ويحظر الاحتلال ترميم أو إصلاح البنيان الآيل للسقوط، فتبدو الأحياء أشبه بأحياء الصفيح، إلا أن بعض أبناء قريتي يقومون بالبناء والترميم سراً ، وتبدو المباني الأسمنتية داخل ألواح الصفيح.

يتذكر أهالي قريتي، خاصة كبار السن ممن عاصروا الأحداث عام ١٩٤٨ المجازر الرهيبة التي اقترفها الصهاينة، منها ما شهده المسجد المعروف بالشيخ "سلمة" التقيت درويش حوسة (وهو شيخ طاعن في السن الآن يسكن في منطقة "أبو علي" بالأردن).. لما أحكم الصهاينة الحصار، أطلق بعض المجاهدين قنابل يدوية علي دوريات الصهاينة التي اقتحمت القرية، فأحرقت سيارتين بمن فيها من جنود ومسلحين. اعتقد اليهود أن القنابل سقطت عليهم من مئذنة المسجد العالية، فما كان منهم

إلا أن حاصروا المسجد الذي كان مليئاً بالأطفال والنساء والشيوخ والعجزة من الفلسطينيين الذين لجأوا إلى القرية من مدن وقرى الساحل التي احتلها اليهود. اقتحم الصهاينة المسجد، وأطلقوا النار عشوائياً على كل من فيه حتى سقطوا جثثاً هامدة، دخل بعض اليهود وأخذوا يقلبون الجثث بأقدامهم، وكلما سمعوا أنيناً من أحد أجهزوا عليه وكلما وجدوا جريحاً مازالت الحياة تنبض في عروقه أطلقوا عليه النار وكل من اعتقدوا أن نفساً لا زال يتردد فيه قتلوه.. استمرت جريمة جامع "سلمة" حتى المساء، حيث أغلق الصهاينة المسجد على من فيه ولم يسمحوا لذوي الشهداء بنقلهم أو دفنهم.

وفي اليوم التالي للمجزرة طلب الصهاينة من الأهالي مغادرة المدينة خلال ٢٤ ساعة في الوقت الذي كانت فيه سياراتهم العسكرية تجوب الشوارع الرئيسية والساحات وتطلق النار عشوائياً على كلَ من تصادفه.

وتصدى رجال المقاومة، رغم قلة عددهم وضآلة إمكانياتهم أمام اليهود ، خاضوا معركة غير متكافئة.. سقط مئات الشهداء.. بقيت جثث الشهداء في المسجد عدة أيام.. قام الصهاينة بعد ذلك بدفنهم في مقابر جماعية، وبقي المسجد مغلقاً بعد هذه المجزرة، حتى سمح اليهود بفتحه عام ١٩٩٧ حيث قام عدد من عرب القرى المجاورة بغسل المسجد وتنظيفه من آثار دماء الشهداء التي بقيت عالقة على أرضه وجدرانه ما يقُرب من خمسين عاماً.

يقول عبدالهادي شلش وهو شيخ تجاوز الثمانين عاماً: إن المسلحين الصهاينة كانوا يقتادون الناس من بيوتهم وأحياناً يجرونهم جراً في الشوارع، ويطلقون النار في الهواء فوق رؤوسهم لترويعهم وتخويفهم وحملهم على الهجرة وتفريغ الأرض؛ استعداداً للاستيلاء عليها، وكان بعض الصهاينة يقفون على مخارج القرية لتفتيش اللاجئين والاستيلاء على كل ما بحوزتهم من أموال ومتاع وحلي ومصاغ، ولم يسمحوا لهم بأخذ أي شيء، وما إن سمعوا باحتلال المدينة حتى سارعوا لنهب كل ما فيها من أثاث وأدوات وملابس حتى أبواب المنازل ونوافذها، وقد نقل اليهود في شاحنات كبيرة كل ما استولوا عليه من منازل "سلمة" إلى مستوطناتهم.

ويضيف شلش وهو يرحل بذاكرته إلى تفاصيل ما حدث: إن رحلة العذاب استغرقت ثلاثة أيام بلياليها عبر الطرق الوعرة والمزارع وأشجار الزيتون، حيث كنا نتحاشى السير على الطرق الممهدة التي كان الصهاينة يسيطرون عليها ويقومون بالاعتداء على المهاجرين رغم الظروف السيئة التي كانوا يُعانون منها، وبعد ثلاثة أيام وصلت أفواج اللاجئين إلى رام اللّـه واستقر أكثرهم في "لواء رام الله"، والبعض القليل منهم واصلوا السير إلى "أريحا" والقليل منهم هاجر إلى مخيمات اللاجئين بإربد في الأردن.

صمت "شلش" لكن فاجأته دمعة انحدرت من عينيه، رغم محاولته لمنعها.

ألمْ أقل لك من قبل أن كافة سكان بلدتي قد اقتلعوا من مدينتهم باستثناء قلة معدودة نجت مازالت مزروعة هناك، لكن دون حقوق، اليهود استولوا على الغالبية العظمى من أراضي المدينة وخاصة مزارع الزيتون وبيارات الحمضيات واستولوا على المنازل والمباني ومن بقي من أهلها يعيشون في أكواخ الصفيح وفي المنازل الآيلة للسقوط.

أبناء "سلمة" يحتفظون بمفاتيح منازلهم وسندات ملكية أراضيهم التي تعتبر من أخصب مناطق فلسطين، لأنها في قلب السهل الساحلي، وأمل العودة يراودهم .. غالبيتهم يعيشون على هذا الأمل ويرفضون أي حل لقضية اللاجئين لا يقوم على عودة حقوقهم الشرعية.

وأدرك شهرزاد الصباح، وسكتت عن الكلام المباح.

(٢٣)

بثينة عز الدين..

جاء الليل.. جاء الحزن.. حطت قتامة على رأسي، فاصطلى سخونة ونزفاً من إحساس الفقد السابح بين ضلوعي، أنت بجانبي في الفراش مسترخية حالمة..

– بثينة... أريدك.

باب سيارة التاكسي فتحته لك، دلفت بساقك اليمنى ثم تبعتها بساقك اليسري، أغلقت الباب خلفك .. أطليت برأسك .. مددت

رأسك لخارج السيارة تتأملينني .. مددت يدك أمسكت بيدي .. ضغطها بقوة، قربتها أكثر إلى وجهك .. إلى شفتيك.. ثم تمتمتِ : إلى اللقاء.

انطلقت السيارة، أخذت تطيلين النظر إليَّ من زجاجها الخلفي.. صرتُ وحدي أيتها الساحرة الشقراء.. نطقت بالحكم "إلى الملتقى" أين هو هذا اللقاء .. ومتى .. بعد سنة .. بعد سنتين .. بعد عشرة .. بعد عشرين.. وربما لا يكون إلا يوم الحشر ؟.. لن تجلسي بجواري في القطار مرة أخرى .. وشعرك الطويل الأصفر الناعم.. يطيره الهواء المتدفق من النافذة، فأمشطه بأناملي .. أمنحك دفئاً كنت تبحثين عنه

بثينة عز الدين يا له من اسم ..َمن سيذكرك ..َمن سيذكرني ؟

جاء الليل.. جاء الحزن .. هل ستعاودين الليلة رقصك الماجن لي؟

َمن سيتفهم هذا الفحيح المسمى رغبة، المنبعث من كل مسامات وحنايا جسدك الرشيق؟ يكفي أن أفهم أنا، قامتك الشامخة، وعينيك المتألقتين.. وزغردة العقيق في شفتيك وترنيمة الفرح تهز ثدييك المشدودين.. "أنا جميلة حقا".. ماذا تعني هذه الكلمة ؟ هل هي تُعبّر عنك وتصفك حقاً ؟ مددت يدك،كبستْ مفتاح الضوء، قلت: أمازلت مستيقظاً بعد؟ التصقت بي أكثر مرت أصابعك على شعر صدري، لففت ساقك اليمنى فوق ساقي، كنت مطمئنة، راضية حنونة، عاشقة.

اليوم حار جداً .. صياح الزبائن في مقهى "باليما" بالرباط على الجرسون .. وآخر يعد دراهمه ..وثالث يخطف مقعداً من جواري بلا

استئذان .. مراهق يعانق صديقته ويجلسان في مكان منزوٍ، دخان السجائر ورائحة التبغ يعبقان المكان .. اقترب مني الجرسون ذو الشارب الخفيف .. رقبته مهزولة تثقلها الإجهاد .. متدلي الأذنين .. بنظرة سريعة من عينيه بلا كلام .. سأل ماذا تشرب؟

– قهوة إكسبريس.

جاءني صوتك مجلفاً في قارب يخترق الضوضاء والزحام.. ينادي بهمس مرتجف: أين أنت؟ أجبت نشوانا: أنا هنا.. وأين أنت قالت: أنا قريبة جداً من نفس المكان.

قلت باندهاش: قريبة.. قاطعتني: أنا أرى المقهي جيداً.. أتطلع إليك وأنا في غرفتي بالفندق، إن غرفتي تطل عليه..

– يا للدهشة.. بيني وبينك بضعة أمتار.

ضحكت ضحكتك الرنانة الشاسعة بمساحات هائلة من الاخضرار.

– أين أنت ؟

– تحت المظلة الخضراء.

– ها قد رأيتك.

أصبح الخيط الرفيع الذي ربطنا منذ سنوات.. عبر أميال من الكيلو مترات لا حصر لها محصوراً في أمتار معدودة..

ازداد صوتي تألقاً ..وازداد صوتك هياجاً ، مشوباً باشتياق.

- سألقاك في الشارع المجاور للمقهى ..

أسرعنا للقاء بسرعة الريح.. الشمس على الامتداد الشاسع كاشفة.. هامات الشجر مطرقة ترقب المشهد.. الوريقات على العيدان كأنها وجوه طفولية ناعسة.. المسافة بيننا تضيق وتضيق.. والفضاء ينحسر.. البهجة تجتاح كياننا كريح عاتية، ها نحن وجهاً لوجه.. أهو أنت.. أهذا أنت.

تعانقت أيدينا وقبلاتنا.. سرنا معاً.. التفت نحوي وابتسمت واختبأت في الصمت وأنت تواصلين الابتسام، وجنتاك ناضجتان.. شفتاك ثمرتان شهيتان احترقت نظراتي صمتك بقوة عظيمة: تتعثرين تكادين تنكفئين على وجهك.." أهو أنت أيها الجبار الذي اقتحمني، ليتك تأخذني بين ذراعيك بقوة وتمسكني من تحت إبطي وترفعني في الهواء وتعيدني لصدرك، ونكون وجهاً لوجه معاً.. لا تستجيب لصراخي ولا توسلاتي".

خائنة هي الكلمات، لكنها تطاردني وتبحث عني - مثل امرأة مخبولة تائهة -إذا مشيت راكضاً تسبني وتبكي إذا أغلقت بابي، لكنني إذا أخذتها بين يدي أو ربت على كتفيها، رأيتها ترجع صوب خياناتها، تضحك من طيبتي وسذاجة عقلي.

- إنني في حاجة إليك.. أتفهم؟!

آه.. يا بثينة.. وصلتك حروفي متعبة مثل جندي مهزوم.. كيف أكتب توقى والكلمات نفسها تخون !! وإذا صدقت فإنها تخون نصف أقوالي، ترسمها عكس رغبتي، وعكس حقيقة ما بداخلي.. إنني متعطش إليك.. أتفهمين !!

ظللنا نسير.. نجوب الطرقات.. جلسنا تناولنا الغداء معاً.. قلت: مالي والحب؟ !

كيف تخون الكلمات وأنا أحوج الناس إلى بلاغتها ورنين حروفها الملكي الباذخ ؟!

– ليس هناك حب متشابه .. كل قصة عالم مفصول عن بقية العوالم، عالم خاص له قوانيه وجنونه وغضبه، ليس من الممكن أن يأخذ هذا الحب مكان حب آخر.. بل قد يكون مكملاً له بصورة أو بأخرى..

– إنها كما بدأت أراها مجرد ثرثرة عن حب آخر لا أعرفه مطلقاً.. لم أكن أدرك أنني سأنجرف.. وعندما قلت لك إنني خائفة من نفسي.. كنت خائفة من هذه اللحظة.

– تستطيعين الانفلات والتراجع.

– عندما قلت لك إن الكلمات صارت تحاربني وتخون إحساسي وتشعل هواجسي.. كنت أعني أنها لا تريد أن تقول شيئاً عن توقى لك.

– لكن لا تكذبيني.. ماذا قالت لك الهواجس عن الرغبة العظيمة التي سافرت في جسدينا.. وسرت في مساماتنا.. وحطت الرحال من ضاحية

إلى أخرى ومن مدينة إلى مدينة.. وحملت حقائبنا واجتازت الحدود، علمتنا السباحة ضد التيار، تسلقت الجبال بخفة مدهشة.

– خائفة مازلت.. ما تتحدث عنه يذهب بنا إلى المجهول، ويجرنا إلى مستقبل غامض.

– لكنه لذيذ جداً..

افتر ثغرك عن ابتسامة كبيرة، أشرقت بملامح وجهك الأبيض الدائري فالتمعت عيناك السوداوتان، وتطاير شعرك الحريري الأصفر.. عندما صرنا وحدنا في الغرفة.. ارتبكت وكأنني الرجل الأول في حياتك!

– لا تقترب (قلتها بهمسٍ ربما لم أسمعها، لكن أحسستها)

– هل تتصورين أنني قطعت آلاف الأميال، لأعيش مغامرة نسميها "تجربتنا معاً" ؟

ابتسمت وقلت: لم أعرف رجلاً آخر غير زوجي ..

كانت كلماتك ساحرة .. امرأة ملفوفة القوام .. لطيفة التقاطيع، ذات بشرة مصقولة ..كان ينبض في ذاكرتي كالفلاش سطح البحر الأزرق القاتم يمتد منكمشاً بذعر في لطخات زبد ليلقي بسماء رصاصية عند الأفق النائي .. وعند الشاطئ تتكسر أمواج مدوية وزبدية. دمعت عيناك .. احترقت الشموع وذبلت وتلاشى ضوؤها ولم يبق منها شيء .. ولم تنفع تضرعاتي ورجائي من أجل أن يطول زمان الحب.

قالت: أهله لجأوا لكل الحيل للخلاص مني .. مرة بالشعوذة وأخرى بالسحر .. إنني خائفة مرتعشة .. مريضة .. أليس كذلك؟! الحمد لله لم يكن لي أطفال منه .. بعد عام واحد طلقنا..

ربت على كتفك وأنا استمع لك .. قلت بهمسٍ يشبه الفحيح:

– أنا ظمأي .. أتعرف ما هو العطش ؟!

كنت أسمعك وأنت تتحدثين وتبوحين وأنا في المطبخ أعد القهوة .. جئتي خلفي قلتي : دعني أعد القهوة..كنت أعدها له تراجعت كنت أتأملك من ظهرك، كتفاك متناسقان، كأنك ضابط برتبة جنرال..اقتربت منك لاصقت جسدك، ارتعدت، قاومت قليلاً .. أدرتك من ظهرك، فأصبحنا وجهاً لوجه، لاصق جسدي جسدك، غمرتك بقبلة علي جبينك انسحبت على وجنتيك، وراحت شفتانا في التحام كبير.

أردت أن أقول دون أن أتكلم "فليذهب الماضي إلى الجحيم .. وماذا تراني أفعل وحدي، وأنا أغرق في بحرك الذي بلا قاع ولا يمهلني لأسأل، ألا يحق لي أن أصرخ في وجه الكلمات وأمزق حروفها حرفاً حرفاً وأغلق الباب في وجه نقاطها وسمومها وخياناتها.."

بثينة عز الدين.. ماذا تريدين من رجل محمل بهموم الدنيا ؟! لا أدري هل تمر الأعوام بهذه السرعة وبهذه السهولة..

هل أحذرك أم أتوجس منك خيفة ؟ هل أتوقع خيبة .. هل عليَّ أن أتوقع أي شيء ؟!

عليَّ أن أفرح لانسلالك من بين يدي.. أم أطأطئ رأسي حسرة وندماً.. يجب أن ترحلي.. يجب أن أهلل لذلك.. حبنا المزعوم لم يكن إلا محض رغبة أشعلت جسدينا.. هيمنت على حواسنا، لا يهم أن أبكي وحدي، لكن يهم أن لا أتراجع وأطاردك في كل بقاع الأرض.. وأعيد مرة أخرى صياغة تاريخك معي؟ يجب أن أمنحك الغاية والمصير بعيداً عني.. لا يجب أن أضعف– ولو للحظة – وآخذك إلى صدري.

(٢٤)

بدأ وحده يحاربهم .. في بادئ الأمر كانوا يجيئون في الليل فقط.. يحاولون صرعه.. في البداية جاء إليه واحد منهم.. لما عجز جاء إليه اثنان.. ولما عجزا جاء ثلاثة.. إلى أن أصبح عددهم أربعين ألف مقاتل، وقد انخرطوا في صفوف طويلة.

بدوا كأنهم أسراب نمل.. يشنون هجمات وحشية يومية.

الذكور منهم يهلكون زرعه.. والإناث تحاولن إغواءه.

قال أحدهم مهما كانت له من بطولة، فلم تعُد بك فتوة.. اليوم تجاوزت السبعين عاماً وأنت تحاربنا.. أما آن لك أن ترحل؟

– يا شيخ "علي" خبرني أما قال لك جدي شيئاً عني؟

قال بصوت هادئ شجي وابتسامة تغُمر وجهه الناحل الذي يغمره إشراق يشبه إشراق الفجر : يا ولدي هل تشعر أن النور زارك؟

– لا أفهم.

– هل تشعر أنك تتغيرّ كلما ذكرت جدك أو مريديه أو قرأت أوراده؟

– نعم.. أشعر بارتعاشه داخلية.

– رابح من يسلك طريق الشيخ من الصعب على نفسي الالتزام بما التزم هو به .. من أين لي الوصول لبقعة نور ؟

– يا ولدي.. بالأمس قبل أذان الفجر بهنيهات زارني جدك وهو مبتسم، قال لي: إن سألك حفيدي فقل له:

– الوصول أن ترى النور في قلبك وفي قلب الظلمة ولا ترجع إلى ذكر ذنوبك، فتذنب أكثر بنكران الرحمة، حين تصح التوبة.

– أشعر يا شيخ علي أنني أتغيرّ بالفعل.

– قال لك : المهم ما تبطن.. كل شيء يحدث خارج نفسك لا وزن له.

– ومن أين لي كراماته؟

– قال لك بالأمس: لا تبحث عن الكرامات يا ولدي، ولا تشغل بالك، الكرامة الحقيقية هي أنت.. الكرامة ربما تكون اختباراً ، حتى يسقط الإنسان في الفتنة، فيخطئ.. ربنا نجنا من خطايانا..

– وهل كان يعلم أنني سأسلك طريقه؟

–كان يتمنى أن يكون أحد أولاده أحد السالكين، ولما عرف تيقّن ويقينه صدق، أنه سيكون أحد السالكين ولداً يولد من صلبه.

– أهو أنا يا شيخ؟

– عليك أن تجيب بنفسك عندما يزورك النور.

(٢٥)

بلغني أيها الملك السعيد..

الكثير والكثير عنك، لكن لا تسألني لِمَ التقينا.. أو أي مستقبل ينتظر علاقتنا؟ أو أي طريق هذا الذي جمعنا لقِّفا؟ إنه غنج القدر، دلاله الذي يثبت في كل مرة إمساكه بخيوط حياتنا، يهزأ، يقف جانباً، يبتسم قائلاً: التقيتما كي تظلا بعيدين دائماً.

هو يمسك زمام حياتي أكثر مني.. يلعب بأيامها كحجارة الشطرنج مع كل نقلة حجر يحتاج لعمر من التفكير.

لكل منا قدره، وقدري أنت أيها الأمير المدلل، كلما أحرق نفسه يبتهج أكثر، يداه تملكان قدرة مذهلة على الخنق.. صوته يشبه نواح كائنات أسطورية مجهولة، أمير حاكم ومتحكم بأيامي، يحب أن يلهو دائماً باكتشاف قدرتي على الوقوف تحت شمس العاطفة.. يستعذب صراخي طلباً للرحمة.

لا أريد أن أكون بالنسبة لك بقايا أوراق ورسائل باهتة، ذكريات أليمة، حلم جريح مسكور الجناحين.. ساعدني أن أغلق بوابات الماضي، وأعيش حياتي، أختار من جديد، طالما أنك لم تختارني.. كشف الحاقدون حولي عن نواياهم، لا ذنب لي فيما جرى، وأنت تعلم ذلك، خذ قلبي وُدر به في كل أرجاء الدنيا، إذا كتبت وصيتي سأقول "لا تتبرأ مني، ولا تغادر روحي حتى تغادرك".

فهل عرفت الآن لم التقينا ؟! هل أدركت أن فراقنا كان الأسوأ في حكايتنا التي ليس لها بداية أو نهاية ؟.

وأدرك شهرزاد الصباح، وسكتت عن الكلام المباح.

(٢٦)

" نادية شوكت"..

بدت نبرتها مفعمة بالثقة، وهي تلفظ حروف اسمها، وجهها يميل للسمرة، ترتدي حجاباً على الطريقة "المودرن" تعلو جبينها حبيبات صغيرة من حَبْ الشباب، استوقفتني عيناها العسليتان، بريقهما ليل مشتعل وخوف غامض هارب من شيء ما.. بدت لي مختلفة عن سائر الفتيات، خيل إلَيّ أنها جريئة، لا توارب.. عندما تحب لا تخفي لكن تأخذ حذرها، لذا لم أتعجب جرأتها في أن ترسل لي مع صديقتها أنها تحبني !! لم أكترث وقتها إذا كانت هي التي بدأت العلاقة أم أنا، اعتقدت أن في ذلك دلالة

على قوة شخصيتها واستقلالها بقرارها.. عرفتها غيوره قادرة على المنافسة.. هذه الصفات وإن كانت منفرة لأي رجل آخر كانت السبب في ارتباطي بها.. وقد ظللت لزمن ليس بالقصير مبهوراً بذاك البريق الأخّاذ الذي تضفيه على أي مكان توجد فيه.

واليوم بعد كل هذه الأعوام، اكتشفت أن ذاك البريق لم يكن إلا زجاجاً واهناً شفافاً للغاية، سريع الكسر.. اكتشفت سطحيتها واهتمامها بالمظاهر الكاذبة.. علاقة حب نواتها الداخلية خدعة كبيرة أوهمتني بها.

أختي قالت لي: هي تمثل عليك.. أنها أنانية ما يهمها هو الحصول عليك كالحصول على أي شيء أو لعبة!

أتذكر أن إحدى صديقاتها قالت لي بمكر: عليك أن تدفع ثمن اختيارك.

كنت قد سمعت عن قساوسة يفقدون إيمانهم، وعن أطباء يتحّولون إلى أشخاص لا مبالين، وعن متسلقي جبال باتوا يجفلون من المرتفعات، غير أني كنت في حالة لا تقل سوء عن أي من تلك الأحوال، وعن أي من هؤلاء الأشخاص.. انقضت سبع سنوات من عمري، وأنا أقدّم القرابين لحكاية حب وهمية، وعلاقة زواج فاشلة.

لا أدري هل عليَّ أن أصفق لذكائك وسذاجتي ؟ أم أقول: "انتهت الحكاية".

لن أنسى ما حييت صباحاً حاراً لاهباً كذاك الصباح الذي سكنت فيه بين ذراعي برباط شرعي مقدس؟ هل عليَّ أن أحتفل كل عام بذكرى خداعها لي، بعد مرور كل هذه الأعوام؟ أم أهلل لتخلصي من بيت عنكبوت نسج باسم الحب.. يا لبلاهتي! وحدي كنتُ سعيداً، بانتقالها للحياة معي في ذاك الركن الصغير المسمى بيتنا.

استيقظنا على صوت نشرات الأخبار يعلن عن وقوع كارثة عربية، كان الصباح الأول من زواجي، والصباح الأول على غزو العراق للكويت.. كانت مضطربة، عيناها مطفأتان من أية فرحة، مسكونتان بالاضطراب والقلق، سألتني:

– هل ستذهب إلى الجريدة بعد سماعك هذه الأخبار؟

– سأتصل بهم، بعد ذلك أقرر المغادرة، هم يعلمون أنني في إجازة الزفاف.. وهناكَ من يقوم بعملي على أية حال، وإن اضطررت للذهاب، سأذهب عصراً، أحتاج للبقاء معك الآن، مازالت الأشواق تحرقني، قلتها وأنا أحاول جذبها إليَّ.

انسلت مني بخفة لتواجهني بعينيها، وهي تسأل بتردد خفي:

– هل نسيت مشاكل الأهل ورفضهم لزواجنا ؟

قلت بلا مبالاة لم تفهمها أبداً:

–المهم أننا معاً في بيت واحد، وأن حياتنا ستختلف كلياً الآن، ليس علينا أي ضغوطات من الأهل أو المجتمع، نستطيع رسم الحياة التي نريدها.

عادت وانعطفت إلى الموضوع، وهي تقول:

– لكنني لن أستطيع أن أقاطع عائلتي لفترة طويلة.

كيف انهمرت الدموع من أجلها ؟ وكيف ظننت أن الحقيقة التي لا تحمل شكاً أنها تحب السير على تناغم خطوات مسراتنا المشتركة؟

عدت إلى البيت بعد مغادرتي بساعتين، كنت قد نسيت بعض الأوراق، حين دخلت كانت تجلس في الصالون الجانبي ومعها فتاة أخرى تبكي بحرقة، وتنتحب "تحكي عن حكاية حب وخدعة" وتطلب منها المساعدة استطعت تمييز نبراتها، كانت إحدى صديقاتها، لم أشأ مقاطعة خلوتهما، دخلت لإحضار أوراقي، ثم المغادرة بصمت كان صوتها بارزاً وأنا أهم بالمغادرة، تتكلم بانفعال وتأثر لم يسمح لها بالتفكير في وجودي، ربما ظنت أنها تحركات الخادمة.

قالت لها: لا تخافي.. عليك أن تتقني دور الفتاة البريئة التي تجهل عوالم الرجل تماماً.. عليك ألا تخلعي حجابك وتقنعيه بشتى الطرق أنك فتاة بريئة، ونقية تماماً.. هكذا أنا فعلت.

– وماذا عن رفض أهلي للزيجة ؟

– أهلك لن يستمروا في الرفض.. لكن عليك أن تقنعيه أنك تحاربين من أجله هو.. في هذه الحالة سيقف بجانبك ويتزوجك.

يا لغبائي.. كيف ظننت أن السعادة عند قدمي ؟ بأي حق كذبت عليَّ، ومضت بي غدراً إلى الخديعة ؟مدركة جيداً أنني ما كنت لأحاسبها على ما حولته الآن إلى كتلة نار أحرقت كل ما بيننا..كيف كان من الممكن أن أمضي بشجاعة بعدما سمعته موقناًأنها لن تواجهني يوماً ، ولن تأتي أبداً لتقول: "ينبغي عليَّ أن أخبرك" أو "كان يجدر بي مصارحتك" ظناً منها أن ما بات سراً نسي إلى الأبد، وأنني لن أعرفه مطلقاً.

الخلافات بيننا تتأجج.. شكوكها تحاصرني من كل صوب..نظراتك النارية تفضح شكوكك.. تمررين اتهاماتك في ثنايا حديثك معي.. تستعلمين عني من أصدقائي، تفتشين في أرقام الهواتف التي أتصل بها.. بواب العمارة جاسوس خاص، لدرجة أنني أحياناً أكتشف أنه يراقبني ويتبعني في الطريق.. الساعي يفتش في أوراقي بزعم أنه ينظف مكتبي، يتفحص وجوه وأسماء ضيوفي يحفظها حتى يذكرها لك..

سائق سيارتي وضعته مخبراً خاصاً يأتي لك بالأخبار الصحيحة والكاذبة وعليك أن تختاري ما يناسب هواجسك.. والحجاب والتدين قناع يتم ارتداؤه وقت اللزوم.. الكذب في حياتنا فريضة يومية، أنا متهم دائماً حتى وإن لم تكن هناك تهمة.

جاء الوقت الذي شعرت فيه أن ما بيننا انتهى، وأن لحظاتنا باتت على شفا هاوية، لكنني كنت أواصل حياتي في محاولة للبحث عن شيء من الترتيب الداخلي لذاتي، فقد بات الآن ما يحكمني أكثر قوة وأكثر إلحاحاً من أي شعور آخر، إنه طعم الحقيقة التي كانت دوماً طاغية بالنسبة لي أكثر من أي أمر آخر.

أية خطط من الممكن أن تصوغها الروح آنذاك؟ وكيف كان بمقدوري أن أفكر بمعزل عن الإحساس باغتيال الأحلام غدراً؟ بصمت، بهدوء، رويداً.. رويداً تمت إجراءات الانفصال، بلا أي ضجيج أو أسئلة أعلنت عن رغبتي بأن تنتهي هذه المهزلة التي تسمى "زواجاً".

لم تنفع كل ثوراتها، وأحزانها، ودموعها أن تشعرني للحظات بأنني غير مغدور، كلما أمعنت في الصمت، أمعنت هي في الهذيان.

(٢٧)

في خزانته القديمة التي أعطتها لي عمتي "وفاء" لوصيته، فتحتها وجسدي يقشعر، كأن روحه تحلق حولي، وجدت مسبحته، مصحفه أصفر الورق، بعض الأوراق والأوردة المكتوبة بخط يده يميل لونها للصفرة طالعت: نور على نور "ربنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين".. هذا بعض ما بي من الهم العظيم..

ألا قل لسكان وادي العقيق.. هنيئاً لكم في الجنان الخلود، أفيضوا علينا من الماء فيضاً.. فنحن عطاشى وأنتم ورود.

لو كانت لي قوة أسافر بها إليك ما بقيت في ألم الحيرة، أفلا تعطني حق محبتي لك، وصحة اعتقادي فيك.. يا َمن إذا تذكرته انشرح صدري وكبر طمعي.. أنت تعرف من زمان شدة عطشي، وما حصل لي الإذن فيما علمت إلا على يديك لكن وراء ذلك حيرة شديدة في كيفية الذكر، وكيفية التصرف بها، ارحمني بما يشفي علتي ويبرد غلي، عسى أن يأتي الفتح أو أمر من عنده على يديك.

(٢٨)

أيها الملك السعيد
هل تعطيني رجلاً حراً، لأعطيك امرأة حرة ؟!

أهفو لبداية تمنحني شهادة ميلاد لحب متحرر من هواجس الأمس واليوم .. عن أي عشق تسألني يا محبوبي، الكلمات تنبت أحزاني.. أراك تقترب من حصني.. أشرع لك كل الأبواب، لكن إياك أن تخسر الجولة الأولى معي، إني لا أملك شيئاً غير إيماني بك والإيمان أقوى من الحب، شفافية في الروح، جعلتني أتيّقن أن سلالة الفرسان قد تتنكر في زي رجل من هذا العصر، لتخلص سبايا الشرق من آثار الكبت.

هل بإمكانك التحرر من كل أثقالك والتحاور معي كل ليلة ؟

إذن تعال إلـَّي.. لا أنوي كسر سيوفك، بل على العكس، فعندما أراك تقترب من حصني.. أفتح لك كل الأبواب.

أنـا الفلسـطينية دون وطـن أو وثيقـة هويـة أو سـفر، الموصـومة بــ "المطلقـة".. ابنـة المخـيم أتعـرف الخيـام المتلاصـقة؟ والبيـوت الكابيـة اللـون والمضـمون، المتجـاورة في جـدرانها مـع أربعـة جـدران أخـرى، لأربـع أسـر أخـرى.. أتعـرف معـنى أن تتحـدث في بيتـك ويسـمع مـا تقولـه عشـرون شخصاً آخر.. ينتهكون خصوصيتك، يعرفون أشياءك ربما أكثر من أهل الدار أنفسهم.. هكذا صارت حياتي عقب الاجتياح الأخير.

من حين إلى حين تفكر أن ترسل لي برسالة تعيد لي عزتي، وهيهات أن ترفع السماعة لتهاتفني، أي جهد بذلت لتسكت ذلك الصوت العالي المتعب لأفكاري.

وصلتني رسالتك الأخيرة، خبرني كيف تقرأ خبايا نفسي، وتعرف أصغر شئوني ؟ لك ما شئت.. دعنا نبدأ من حيث أردت، ننسى الماضي، وننظر لحاضرنا، هل تستطيع أن تتخطى كل تلك الحدود اللعينة؟

وأدرك شهرزاد الصباح، وسكتت عن الكلام المباح.

(٢٩)

اجلسي .. فأنا أعرف كم أنت متعبة ..

– أتيت إليك من الحرب، عبرت تلك الحدود اللعينة، كي أصل زمني بزمنك، أحتاج لماء ساخن، كي أزيل ما علق بي من وحول الطريق.

"آه يا شهرزاد، أيتها المتربة برمال الغربة المرة، أي اغتسال تريدين وأنت مطيبة بالزيوت العتيقة، ورائحة طيوبك في نقوش أساورك، وفي ثنايا ثوبك الذي يحمل عبق رائحة زهرة المدائن العتيقة.

– هيا اصنع لي قهوتي.. كم اشتقت أن أشربها معك ؟ ضع الكثير من السكر.. أحتاجها الآن.. اعتدت احتساء القهوة السادة في بلدي كل يوم شهيد وأقداح القهوة المرة تدور على المعزين.

– تبرأي قليلاً من ذاكرتك.

– وأنت هل تستطيع أن تتبرأ مما جئت منه ؟ ألست عائداً لتوك من جنوب لبنان من مجزرة قانا، هل استطعت أن تنسى الجثث والأكفان؟ "ابتسمت بمرارة وواصلت حديثها" ورغم كل هذا نحيا ونلتقى ونحب، ونحن نبحث في كل مرة عن بلد نلتقي فيه .عُمان مكان لقائنا هذه المرة، وغداً سنبحث عن بلد آخر نلتقي فيه.. وهكذا .. إلى متى؟

– الحدود دائماً.. تقف بيننا

- ليست الحدود وحدها !! إنه قدر أرض منذورة لحرائق الغزاة ومذابح لا تنتهي. ولو أنك عرفت فلسطين، لو أنك عشت في قريتي لأدركت سر روايتناالتي نحفظها جيلاً بعد جيل.

"أيتها المنذورة للوجع.. في عينيك شهادة ميلاد وموت لا ينطفئان".

- خبريني ماذا حدث معك منذ افترقنا آخر مرة ؟

قبل عشرة أيام اقتحمت قوات الاحتلال البلدة، داهموا الأهالي الذين يصلحون أبنيتهم الآيلة للسقوط، اعتقلوهم، هدموا الإصلاحات، النساء خرجن من بيوتهن، ليهاجمن الجنود ويبعدهم عن أولادهن .. أتدري ماذا حدث لجارتنا أم خليل، وهي تدفع الجنود عن بيتها دخل ابنها "أحمد" ليعلمها باستشهاد أخيه "خليل" فهل تصدق بما أجابته.. قالت "وأنت ليش رجعت ياما، روح واضربهم"..

أم خليل عمرها يناهز السبعين عاماً، تحدثنا عن مجازر حدثت عام ٤٨ وتعيد إلى أذهان أولاد الجيران الرواية نفسها كل يوم وهي تردد "علشان ما تنسوا وتبيعوا الأرض".

- انسي قليلاً.. واذهبي للاستحمام وسأعد لك القهوة.

- قامت إلى حقيبتها الجلدية الكبيرة التي تضع فيها الكثير من لوازمها، زجاجة ماء، الكاميرا، بسكويت، القهوة سريعة الذوبان.. كاسيت صغير،

دفتر صغير.. مدت يدها لي وهي تخرجها من حقيبتها وتقول: - هذه هدية لك تحفة نحاسية منقوش عليها قبة الصخرة.

(٣٠)

بعد أن انتهى من صلاة العشاء وقراءة أوراده.. دنوت من الشيخ علي أبو رفاعي وسألته :

- دلني على طريقي فقد أضلتني الحياة..

- قال: تعلمت من جدك أن الفقد والوجد متعاقبين علينا كتعاقب الليل والنهار، فكن راضياً إذا فقدت، ولا تحزن فيحزن عليك، وسلم وجهك إليه في كل ما قصدت، ولا تكن مكايداً ولا معانداً، ولا عاصياً متمرداً، ولا فقيراً جاحداً..

- ما حقيقة الإخلاص؟

- رؤية المتبوع عند كل شيء ومع كل شيء وفي كل شيء.

- يا شيخ أنت دليلي إلى جدي.

(ابتسم وقال) **:- الشيخ من دلك على راحتك لا من دلك على تعبك ..كل شيخ لم تصل إليك الفوائد فليس بشيخ.**

استطرد بعد أن صمت هنيهة :

- ليس الولي من سقط الخوف في نفسه، إنما الولي من سقط الخوف به عن غيره.

حلق ببصره عالياً وقال : أخسر الناس منزلة من جعل دينه سبباً لقضاء حوائجه، اجعل فقرك إليه وحاجتك عنده، وأحذرك أن يمتد بصرك إلى غير ما تملك، فتحجب عنه.

وبينما يهم بالقيام وهو يتمتم.. اقترب منا رجل لا نعرفه إلا أنه يواظب على الصلاة معنا.. سأل أبا رفاعي عن تقصيره في أداء فريضة من الفرائض.. احمر وجهه غضباً وقال: أقول لك ما قاله شيخي عوض أرسول أنا، فأوجب الواجبات، الفرائض معلومة والمعاصي مشهورة، فكن للفرائض حافظاً، وللمعاصي رافضاً، واحفظ قلبك من إرادة الدنيا، واقنع من ذلك كله بما قسم الله تعالى لك، إذا خرج لك مخرج الرضا فكن للعدل شاكراً، وإذا خرج لك مخرج السخط فكن عنه صابراً.

كم غريق في الشيء لا يعرف بغرقه، فتعرفني وتنبهني عما أجهل، وأنا غافل عنه قلت له نعم المحبة.. أخذت منك قلب من أحب بما يكشف له من نور جماله وقدس كمال جلاله.. وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف، والأنوار بالأنوار والأسماء بالأسماء والنعوت بالنعوت، ويتسع فيه النظر لما شئت، فالشرب سقيا القلب والأوصال والعروق.

(٣١)

بلغني أيها الملك السعيد:

أن أهالي قريتي كانوا يلجأون إلى مقام الشيخ سلمة عند انحباس المطر ويرددون أغاني الاستسقاء مثل:

يـــــارب هـــــات المطـــــر	*يـــــارب هـــــات الســـــيل*
يـــــارب هـــــات العـــــرايس	*علـــــى ظهـــــور الخيـــــل*
يـــــارب بلـــــه بلـــــه	*خبـــــزه قرقـــــد فـــــي ّعـــــه*
يـــــارب بـــــل الشالـــــة	*وإحـــــنا تحـــــتك حمـــــالة*
يـــــارب بـــــل الكـــــردوش	*إحـــــنا عنـــــك ويـــــن نـــــروح*

ويقومون أثناء الزيارة "بتحية" ضريح الشيخ سلمة بالحناء ويدقون العلّة ويذكرون الله ويدعون "يارب تسقينا الغيث" يارب ترحمنا ولا إله إلا الله". ويضيف أحد سكان القرية: أن أهالي القرية كانوا يتجمعون عند الضريح للتحكيم بين الناس ومعرفة الصادق من الكاذب، حيث يعتقدون أن داخل المقام سلسلة من الحديد، فإذا ما دخل الشخص المعّرض للتحكيم وحلف صدقاً فهو يمسك السلسلة وإذا لم يمسكها فهو كاذب.

ويروي الرواة أنه في الأسبوع الأخير من شهر شعبان من كل عام يحتفل بما يسمى "الشعبونية" وكان جميع أهالي القرى المجاورة يأتون لزيارة

مقام "سيدنا سلمة" والوفاء بالنذور والدعاء، وجميع النذور يوفى بها وقت الشعبونية، فتكثر في القرية الأفراح والطبخ في البساتين، وإذا كان لامرأة طفل مريض تقول نذرت يا سيدنا "سلمة" إذا شفى ابني سأحضر البخور وأشعله، ولما يشفى ابنها تأخذ بخوراً ومشاعل وشمعاً وتقول يا سيدنا أنا جئتك وأوفيت نذري.

يامـا طحنـا علـى الوفـة بعـدد ورق الليمـون والعدو تتفرج والقلب من جوه مغبون
طحنـا علـى الوفـة بعـدد ورق التفـاح والعـدو تتفـرج والقلـب مـن جـوه نـواح

وفي معظم الاحتفالات تتحّول مناسباتهم الخاصة، مثل:

الأفراح إلى مناسبات عامة لجميع أهل القرية، ففي الأعراس يجتمع الصغير والكبير وجميع نساء القرية ورجالها للاحتفال بالعرس، وإقامة مراسم الزواج، وجميع أغانيهم في الأفراح تغلب عليها الكلمات التي تتعلق بالوطن والعدو، بسبب وجود المستعمرين البريطانيين ووجود المستوطنات اليهودية بقربهم.

وأدرك شهرزاد الصباح، وسكتت عن الكلام المباح.

(٣٢)

ماذا دهاني؟

أعطيني منديل الأمان لأعترف..

بالأمس ليلاً كنت في حاجة للبكاء.. أظنك ساعتها كنت تشعرين بها ـ رغم بعدك المكاني عني بآلاف الأميال . نعم ضاق صدري، وتحشرجت روحي، وسقط الليل على نوافذي وستائري، ودارت رأسي وأنا على سريري.. إلهي لم أعد أستطيع تحمل كل هذا الفقد.. لا البحر يروي عطشي، ولا هذه السماء تغطي شجوني. آه لو كنت معي!!

أدركت حجم السخف الذي يكسو كلام من حولي .. حجم الحماقات التي تدور في ذهني، ثم تختفي بين مسامي وضلوعي.

أبداً.. ليست محض رغبة أو اشتهاء.. بالأمس ليلاً.. عرفت معنى الاحتضار.. عرفت أن الشمس من الممكن أن تغضب ولا تشرق، وأن الليل قد لا يأتي بعده نهار.

حتى وإن ذهب الليل وجاء النهار.. أي ليل سيذهب.. وأي نهار سيجيء؟

على أية حال.. كم أحسدك على صمودك؟ سأنتظر القطارات، سأبحث عن مواعيد كل الطائرات القادمة من عندك، حتى يطل وجهك، بملامحه الطفولية، ويقول: ها أنا جئتك.

وتشهقين شهيقاً أسطورياً وأنت بين ذراعي سنخرج في شوارع القاهرة ونزور كل الأماكن التي زرناها بالأمس سنزور "أبا الهول" و "السيدة زينب" و"الحسين" و"الموسكي" و"ميدان التحرير".. ويسحبني كوبري قصر

النيل.. أكاد أبكي وأنا أزاحم مئات البشر عليه..هل أهلكني الحنين إليك إلى هذا الحد؟ ماذا كانت القاهرة قبلك.. قبل أن تدخليها؟!

لست أدري ماذا ستفعل أصابعي إذ مددتها ولم أجدك بين أصابعي.

بالأمس:أردت البكاء، رغم أنك تعرفين جيداً أن دموعي عزيزة المنال تجلدني الكوابيس، فأعطيني الحماية، حتى لا أنكسر.. ماذا أفعل وحدي ؟ هل أستطيع الحرب وحدي؟ اعتذر على هواجسي أيتها الغالية.

(٣٣)

قال لجدي "اليوم عدت.."

بعد كل هذه السنين من الانقطاع والبعد عنك عدت.. بعدما أيقنت أن الطرق وإن تنّوعت وكثرت وتشعبت فإنك تعرف نقطة البدء والارتحال والغاية.. وأيقنت– واليقين كما تعلم أعلى منازل المعرفة – أن نفسي في أصل نشأتها كالمرآة المصقولة النظيفة يتجلى فيها كل شيء يقابلها من ماضي الوجود والآتي منه، لكنها معوقة عن ذلك بأحد الأمرين.. أمور الدنيا ولقمة العيش أو انصرافها عن المقصود إلى غيره من شهرة ونفوذ وتأسيس لممالك، فتصرف النفس عن المقصود بانطباعه فيها، فلو تجلت في الأمر الأول لأبصرت ورفع حجابها، ولو توجهت في الثاني لرأت، ونفي احتجابها.. ومادامت

معلقة بأحدهما فهي مصروفة عن المبتغى ولا يمكنها الوصول إلى غاياتها منه.

كيف يشرق قلب وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟

وكيف يرجو أن يفهم دقائق أسرارك وهو لم يتب بعد من زلاته، أحاول أن أعلو تارة بالهمة والرغبة في العزم.. وتارة بمجرد التلقي والإلقاء.. ليست الصورة سوداوية –كما استشعرت – بل علة.. وأصل كل داء فساد القصد، وعلاج النفس كفها عما تريد حتى لا تقع فيه، وتطهيرها عما وقعت فيه حتى يزول.

جعلت نصب عيني حقيقتي.. بشريتي، حتى أنصبغ بها انصباغاً يقتضي لي ثبوت اليقين بوجه يجد لذاته، فإذا حصل له ذلك استمرت نفسي في الجولان في معانيه إلى حد ما قسم لها من غير توقف..وسرت بذلك سيراً مباركاً أعرفه عند توجهه، فلا حاجة إلي وضعه.

من للعاجز غير القادر، احجبني بعظمتك عن كل شيء هو لك، واملأ قلبي حتى لا يكون فيه متسع لغيرك.. مَن للذليل غير العزيز.. مَن للفقير غير الغني.. مَن للمخذول غير المنتصر.

ها أنا معلق بالرجاء..

عدت إليك فأعدني وانصرني، واعصمني ولا تكشف السر.

(٣٤)

بلغني أيها الملك السعيد:

جلس أبو الوليد عيسى معنا -كنا مجموعة من الشبان والفتيات - في مقهى يشرف على النصب التذكاري وبدأ يسترجع ما حدث، وأسئلتنا تلاحقه ذاكرته لم تخنه بعد، رغم مرور عشرات الأعوام على تلك اللحظات العصيبة. يسترجعها وكأنه يتلوها عن ظهر كتاب دونه ويحفظه جيداً.. إنه يوم تدمير قريته.

قال: "كنا عائدين على دراجاتنا، أنا وأبناء عمي، كل شيء على ما يرام. لم أشعر بأي شيء غريب. اللعة كانت الرابعة مساءً والشمس قاربت على المغيب، وحدة حرس الحدود كانت مرابطة على مدخل القرية. اقترب منا أحد الجنود وقال: "ضعوا دراجاتكم هنا والحقوني". ثم سألنا من أين نحن؟ فأجبنا: من "سلمة". بدأت أشعر أن شيئاً غريباً يحدث، لكني لم أتخيّل أنه قد يصل إلى حد القتل. ظننت أنهم سيضربوننا ويهينوننا كما اعتادوا في السابق، خاصة لمن لم يكن معه تصريح من الحاكم العسكري. كنت أتقن العبرية. أخرجت التصريح من جيبي أوضحت لهم أني أحمل تصريحاً لم يكترثوا: أوقفونا في طابور طويل، سمعت أحدهم يأمر الجنود: "تكسور اتام". فهمت في الحال ماذا يقول "احصدوهم" شعرت وكأن السماء أطبقتْ عليَّ لمْ أقدر على الحركة، أحسست بلساني يثقل وأنني

أعجز حتى عن التفكير. فقط شيء واحد راودني: "لا شك أنهم قتلوا جميع أبناء القرية".

توقف أبو الوليد عن الحديث وتنهد ثم استطرد يحكي: "بدأت زخات الرصاص تنهمر علينا من كل حدب وصوب، لحظات كأنها الدهر، وحين بدأ الجنود جمع الجثث كتمتُ أنفاسي أكثر. سحبوني من رجلي، ألقوا بي على حافة الشارع فوق زملائي وأبناء قريتي، إصابتي كانت خفيفة في يدي ورجلي.. الحمد لله كتبت لي النجاة بمعجزة.

تنهد أبو الوليد وواصل حديثه: في نفس اليوم كان "إسماعيل بدير" عائداً من عمله في قطف الزيتون على عربة من عجلتين يجرها بغل، لا يعلم شيئاً عن منع التجول الساري الذي كانت الحكومة الصهيونية قد فرضته على القرية. وإلى جانب العربة أو خلفها سار رجلان يحملان الخضروات. استوقفتهم دورية صهيونية مدججة بالسلاح. أمروهم بالنزول من العربة. شاهد إسماعيل جثث بعض القتلى على الأرض وشعر بما سيؤول إليه مصيره. توجه إليهم قائلاً:"دخيلكم! لماذا تنوون قتلنا؟" أجابه القائد:" اخرس". والتفت إلى جنوده آمراً إياهم بالعبرية "تكسور اتام".

ارتمى إسماعيل تحت الجثتين مصاباً في فخذه وخاصرته مدعياً الموت. حمله الجنود مع الجثتين رموه خلف السور، سحب رجله الدامية تسلق أول شجرة زيتون صادفته. شاهد أهل قريته وهم يحصدون أمامه.

أشار أبو الوليد بإبهامه إلى الأسماء المكتوبة على نصب تذكاري في ساحة الشهداء وسط القرية وقال: إسماعيل مدير وصف لي ما حدث بقوله: كان الألم يقطع أوصالي. الدماء تسيل إلى أسفل الشجرة. خفت أن ينكشف أمري. مزقت قميصي وربطت مكان النزف. فإذا بالعقدة تغوص في اللحم. مزقت قطعة أخرى ربطتها على الفخذ. ومن فوق الشجرة شاهدت عثمان عيسى راعي الأغنام ومعه ابنه يقتربان من فسحة بالقرب من مفترق الطرق هنا: وأشار لي بإصبعه إلى مكان يعج بالبيوت والدكاكين، وقال:" كانت المنطقة غير مأهولة. كدت أن أصرخ لأنبههم، لكني اكتشفت أنه ليس لي صوت. ما هي إلا دقائق حتى بدأ الرصاص ينهال عليهما، سقطا على الأرض مع مجموعة من الأغنام، بينما هرب بقية القطيع إلى داخل المدرسة" .

أخذت انتفض كالدجاجة المذبوحة العرق يتصبب من كل جسدي. الناس علي الأرض بعضهم أقربائي، بعضهم أصدقائي. حاولت أن أغمض عيني كي لا أرى، سمعت صوت عربة قادمة من الطرف الآخر لمفترق الطرق. ازداد خفقان قلبي، لأن هذا يعني مزيداً من القتلى. توقفت العربة وحين اقتربت تحققت أن فيها صديقي محمود ريان وآخرون. توجه أحد الجنود إليهم وأمرهم باستئناف السير. وفور اجتياز السيارة مفترق الطرق، أطلق الجنود النار عليهم من الخلف، انحرفت السيارة وانقلبت، شاهدتهم فيما بعد ينقلون من فيها ويكوموهم فوق الجثث.

"ازداد الألم، وشعرت بالدوار، وضعت يدي على وجهي وإذا به منتفخ كالبالون" . وبعد وقت قصير، وأنا بين الإغماء والصحو، وصلت إلى مفترق الطرق عربة ذات أربع عجلات مربوطة ببغل عليها إسماعيل عاقب وابن عمه توفيق. أمرهم أحد الجنود بالوقوف إلى جانب العربة. ثم وصلت مجموعة من راكبي الدراجات إلي المكان، كان أولئك عمال في طريق عودتهم من عملهم، كانت مصابيح دراجاتهم مضاءة، لأن الشمس كانت قد غابت، أمرهم الجنود بوضع دراجاتهم إلى جانب العربة والوقوف في صف واحد مع ركاب العربة وبقية راكبي الدراجات، صار عددهم نحو خمسة عشر شخصاًتقريباً بينهم ابن عمي أحمد بشير بدير، وقف في آخر الصف، فصرخ في وجهه الجنود:"يا كلب قف في منتصف الصف"، فانتقل المرحوم إلى منتصف الصف.

عندما لم ير الجنود في الأفق مصابيح لدراجات أخرى، سأل الجندي الواقفين في الصف من أين هم؟ وكان جوابهم جميعاً أنهم من "سلمة" وفي هذه اللحظة خطا الجندي خطوة إلى الوراء، وأمر جنديين كانا يقفان في خط عكسي لصف الضحايا:" تكسور اتام" . وفور ذلك أطلق وابل من الرصاص على صف الرجال، سقطوا جميعاً ماعدا مصطفى جينجي الذي قفز من فوق الجدار دفعة واحدة.

شاهدته يزحف مع الغنم. أما ابن عمي فانتفض لثوان من حلاوة الروح ثم همد. حملوهم وكّوموهم إلى جانب الشارع. كان بعضهم على قيد الحياة.

ثم شاهدت سيارة شحن قادمة من شارع عمر بن عبد العزيز (أحد الشوارع المتفرعة من المفترق) سمعت البنات وهن يغنين في داخلها، دخلت السيارة المفترق دون أن تتوقف، فركض أحد الجنود خلف السيارة وصاح "قف" لكنها واصلت طريقها، دخلت إلى طريق المدرسة، اجتاز الجندي الشارعين، صرخ مرة أخرى: قف، قف، وهو ينادي جنديين آخرين موجودين في المكان. توقفت السيارة في النهاية على طريق المدرسة. أمر أحد الجنود الركاب بالنزول من السيارة. نصب السائق السلم على حافة صندوق السيارة، وتوجه إلى النساء قائلا:" يا إخواتي انزلن، واعرضن بطاقات هوياتكن ". لكن يبدو أن النساء لاحظن وجود الجثث في مفترق الطرق، توسلن أمام الجندي أن يرحمهن ويبقيهن على قيد الحياة، لكن دون جدوى، قتلهن جميعهن.

"حمل الجنود القتلى إلى شاحنات. أردت النزول من على الشجرة لم أستطع. سمعت مكبر الصوت يعلن استمرار منع التجول، فعرفت أن هناك أناساً مازالوا على قيد الحياة في القرية. مكثت فوق الشجرة ثلاثة أيام. انتفخ وجهي أكثر وأكثر. شاهدت الدود يخرج من رجلي. انتهى منع

التجول وعثر عليَّ ابن عمي تحت الشجرة. لكني لم أع ما حولي إلا في المستشفى ورجلي مقطوعة".

وأدرك شهرزاد الصباح، وسكتت عن الكلام المباح.

(٣٥)

لابد للصمت بيننا أن يحتضر، ولابد للحمائم التي في صدورنا أن تنطلق وتطير، وتسبح في سماء بلا حدود..

يا قاسية: تشككين في كلماتي التي أطلقتها من صدري إليك، وليس في جعبة تاريخي سوى الصدق.. ها هو شكك كالبناية شاهقة يقف سداً يحجب الرؤية أمام عينيك.. لماذا تخافين من أن ينزل مطري إلى أرضك؟ لماذا تقاومينني بالسيوف والحراب ؟! تنوين كسر سيوفي على أبوابك، لأعود مهزوماً بلا فتوحات ولا وعد.. ليس مهماً أن تنظري للماضي، ليس مهماً أن تكون نهاية قصتنا سعيدة..

– إن ما أملكه وأتمنى أن تشاركيني فيه تذكرة ميلاد نحو إرهاص مسافر، يستبق الفجر إلى زمن آخر وتاريخ آخر..

لا تقولي "الآتي امتداد الأمس.. والقمر ارتحال، والأيام لا تبدأ حتى تنتهي.. والدروب إليك باتت موصدة.

– آتيك من أي المسالك وخوفك يترصد الأبواب.

من خلال محادثتي الهاتفية لك عرفت أن الذئاب تترصد بابك، الطريق أمامك بات مغروساً بالحنظل والأشواك.. أدرك وجهك خلف الحصار..كوني كما أردت، لا تسلمي هذا الجسد.

يقولون عنك الذي ليس فيك، لكنك تمتلكين البراءة.. كل البراءة.. هم يريدونك أن تفقديها.. إياك والتراجع أو الانكسار.. أوالانحناء..

كتبت كثيراً.. وجاءت كلماتي، وقد مدت إليك جسور الحنين، لكن بلا جواب منك، فلعنت خوفك وانحسارك..

لست وجهاً مغروراً كما يقولون..

لست أميرة من أميرات البحر لا تعرف سوى أسر الآخرين والتشظي بتعذيبهم.لست مسببة لم يعُد منك إلا الخطايا.. إنها الحرب عليك –ممن حولك– تريد اغتيال أحلام حلوة ..

مدي يديك قليلاً، لترتاح تلك الروح مع توءمها.. ويرتاح هذا الجسد الناضر، تغفو قليلاً تلك الرموش التي أضناها التعب ..

إني على يقين –رغم كل ظنونك نحوي– أنني شمس في دجى اغترابك..

اطمئنت نفسي "أن وجهك سوف يجتاح أسوار الحصار ولن تخلفي وعدك معي.. أليس كذلك؟! "

(٣٦)

عندما جلست في حضرة الشيخ أبو رفاعي .. فردتُ بعض أوراق جدي الصفراء.. وسألته : – أهذا خطه ؟

أجابني : السائل أعلم من المسئول؟!

قلت: – نعم هو خطه..

قال : أقرأ ما بين يديك..

قال الشيخ "عوض": لحظة أن نولد تبدأ رحلة العودة.. وخلال الرحلة تحدث تغيرات على كل المسافرين، وتبدلهم من حال إلى حال، ويسعون للوصول إلى الهدف المشترك، الذي يبحث عنه كل منهم ويرغبه، لا تلبث فروق الرؤية أن تزول، وتصبح الوحدة بديلاً للاختلاف.. والكل والواحد هو الكل..

المسافرون كثيرون، طرائقهم عديدة للوصول إلى معرفتك، الفروق والاختلافات بينهم ستضيق، تتضاءل حتى تتلاشى نهائياً، الغاية واحدة، والتعددية تؤول بالضرورة إلى وحدة المصير، لدى الوصول لمعرفة الهدف المشترك المنشود جل وعلا.

– دلني إلى الطريق؟ وخبرني عن مساحة السفر؟

– طريقك طريقتك، أن يكون القلب صافياً لا تشوبه شائبة.. أما السفر، فهو بين الأرض والسماء، ستقطعها بلحظة واحدة كنظرة الناظر بطرف عين.

– وماذا أفعل لصد الهوى؟

– عليك بإسقاط الهوى.. أبت المحبة أن تستعمل لغير المحبوب.

– وماذا تقول عن مجالستي للأولياء؟

– إذا جالست الأولياء، تذوق ما لم تذقه من قبل، وإذا استمعت لهم ففارق ما تعلم تظفر بالمكنون.

– وماذا تقول عن حاجتي؟

– كن على يقين وإن قل عملك.

– أوصني؟

– أوصيك أن تجعل سؤالك وفقرك إليه وأحذرك أن يمتد بصر قلبك إلى غيره، فتحجب عنه.

(٣٧)

بلغني أيها الملك السعيد:

إن عقارب الساعة كانت يومها تشير إلى بعد ظهر الثالث من إبريل ٢٠٠٢ وعلى مدى تسعة أيام استمر القصف المكثف فوق رؤوس سكان المخيم.

أي انتفاضة تلك التي يدعون أنهم يستطيعون إخماد صوتها.. وأي مقاومة تلك التي يدعي اليهود أنهم سيسحقونها.. لماذا لم يسحقونها خلال الخمسين عاماً الماضية؟ ما حدث في جنين هو ما حدث في قريتي التي دمرها اليهود عام ١٩٤٨ من قتل وتدمير وهدم للبيوت.. نفس السيناريو تكرر..سأتنحى عن الحكي، ليحكي لك أبطال "جنين" ما حدث.

غدير محفوظ، امرأة تجاوزت عقدها الرابع، قالت: الجنود الإسرائيليون لم يتركوا أي شيء في المخيم قالت وهي تمسك جبهتها بيديها اللتين كانتا ترتجفان " لم يتركوا طفلاً أو شجرة أو قطة.. حتى إذا حرك الهواء الستارة يطلقون النار علينا فوراً".

حاولت أنا وزوجي وأطفالي الخروج من المخيم، ضمن مجموعة كانت ترفع راية بيضاء ورغم أن الجنود الإسرائيليين كانوا يعلمون تماماً أن هذه المجموعة من المدنيين، فإنهم أطلقوا النار عليهم، وفّر أفراد المجموعة للنجاة بأرواحهم ولم أَر زوجي منذ تلك اللحظة.

قال محمد علي، وهو شاب لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره، وهو من سكان المخيم، إن القصف عندما بدأ تسبب في تطاير كل زجاج المنزل وظل "علي" وأسرته يختبئون في مطبخ المنزل الذي يعتبر أقوى جزء فيه، وذلك عندما كانت المنازل المجاورة تتعرض لصواريخ الهليكوبترات من الجو والجرافات من على البر.

ويستطرد محمد: إنه خاطر بحياته ومد رأسه من النافذة ليرى ما يحدث في الخارج، ورأى بالفعل بقايا خمس جثث تحت ركام مبنى منهار، من بينها جثة لطفل صغير، ويعتقد أنهم ماتوا بسبب انهيار المنزل فوقهم بفعل تدميره بواسطة الجرافات أطلقوا النار على الناس بصورة عشوائية من خلال نوافذ بيوتهم، استخدموا المدنيين كدروع بشرية عند إجراء التفتيش من منزل إلى آخر بل وقطعوا رؤوس طيور الكناري التي يملكها شخص من سكان المخيم يعمل في مجال تربية الطيور".

ويضيف محمود أبو سامر، وهو كهل تجاوز الخامسة والأربعين من عمره كان يملك محل بقالة ، إن الهليكوبتر القاذفة للقنابل أطلقت أربعة عشر صاروخاً على منزلي، الجنود الإسرائيليون كانوا يتحركون في الشوارع وطلبوا من السكان الذين تزيد أعمارهم عن خمسة عشر عاماً الخروج إلى الشارع، حيث أجبروا على خلع ملابسهم. اقتادوني معهم وأمروني بفتح أبواب المنازل ومطالبة الناس بالخروج من منازلهم. وعندما سمح لي الجنود بالذهاب إلى منزله وجدت أنهم قطعوا رؤوس كل طيور الكناري والعصافير الأخرى التي كنت أربيها، حتى الطيور لم تسلم منهم.

وتقول ربيعة نجم : إنها وثلاث نساء في العشرينات من العمر خرجن من المخيم ومعهن أربعة أطفال صغار السن ومولود في الشهر الثالث من عمره.. أخرجن عنوة من البيوت واعتقل الجنود أزواجهن وضربوهم أمامهن..

الإسرائيليون طلبوا منهن الخروج من المنازل وإلا سوف تنهار وهم بداخلها. وقالت ربيعة: إن الجنود الإسرائيليين جردوا المعتقلين الفلسطينيين من ملابسهم ووضعوهم أمام دبابة وعندما بدأت النساء في الصراخ وضعوا النساء والأطفال، الذين يقدر عددهم بمائة وخمسين، في غرف صغيرة. ولم يعرف مصير المعتقلين.

الممرض أسعد حشاش قال: إنه شهد بعينيه قناصاً إسرائيلياً يقتل شيخاً عمره حوالي سبعين عاماً أمام منزله عندما خرج بعد عدة أيام ليرى الشمس، وأضاف حشاش، الذي لم يستطع على مدى عشرة أيام الوصول إلى المستشفى الذي يعمل فيه، أن قناصاً إسرائيلياً قتل راعياً للأغنام، وفي كلتا الحالتين لم يسمح لسيارات الإسعاف بالعمل، فالذي يُصاب برصاص القناصة الإسرائيليين يُترك وهو ينزف حتى الموت.

حنان فواز، شابة في الثالثة والثلاثين من عمرها، تتذكر الأيام الثلاثة الأولى التي أعقبت بدء حصار المخيم وقصفه، حيث تجمع نحو ثمانين شخصاً في منزل واحد للاحتماء من هجمات المروحيات. وتروي قائلة: " لم نكن نملك شيئاً نأكله أو نشربه وفقدت شقيقة لي وعيها من الجوع. كنا نشعر بالدخان المتصاعد من منزل كان يحترق قربنا، إلا أننا كنا عاجزين عن التحرك بسبب القصف". وتابعت: "كان بعض المقاتلين يأتون إلينا للاحتماء، إلا أن عددنا كان كبيراً جداً، لم نكن قادرين لا على

النوم ولا على الحركة. وبعد ثلاثة أيام قررنا أن نحاول المغادرة". وواصلت حنان قص رواية خروجها من جنين: "خرجنا.. النساء في الطليعة يحملن علماً أبيض. فور تقدمنا نحو عشرين متراً أطلق قناص إسرائيلي النار باتجاهنا فتوقفنا ورفعنا أيدينا صرخنا بأننا مدنيون". الجنود أوقفوا الرجال وتركوا النساء.

أما شقيقتها هلا، عشرون عاماً، قالت: إنه من الصعب جداً التعرف على المخيم، حيث كان يعيش نحو خمسة عشر ألف لاجئ قبل الهجوم: "لم نرى جثثاً في الشوارع لأن الجرافات كانت جرفت المنازل المدمرة لتمكين الدبابات والجنود من التقدم".

أبو محمد قال: إنه كان بين الألفي شخص الذين اعتقلوا. ثم أطلق سراحه، ولجأ إلى قرية رمانة على بعد عدة كيلو مترات من طريق كفرداين مع ثلاثمائة شخص آخر أطلقوا مثله. وأضاف: "قيدت وعصبت عيناي قبل اقتيادي مع تسعين رجلاً آخر إلى معسكر سالم قرب جنين". وتابع: "أجبرت على نزع ثيابي وتعرضت للضرب. وبقيت راكعاً لساعات طويلة مقيد اليدين، خافض الرأس باتجاه الأرض". وقالت حنان: "يقولون إن الأمر انتهى إلا أننا هنا وأطفالنا أيضاً. لن ننسى أبداً".

أما رانيا زايد ابنة الخامسة عشرة، فمكثت هي ووالدها وشقيقها في منزلهم، فقد أطلق جندي إسرائيلي الرصاص على رجل في الشارع وهو

يحاول تعبئة بطارية هاتفه الجوال من بطارية عربته. انطلقت شظيتان نحو غرفة المعيشة في منزل "رانيا" عبر نوافذها، حيث استقرت إحداهما في صدر رانيا. وقُتل الرجل الذي كان في الشارع وهو في العشرين من عمره.

وخشية أن تتعرض عربة الإسعاف لإطلاق النار من قبل الإسرائيليين، الذين يقولون إنها تستخدم أحياناً كساتر للمقاتلين ولأسلحتهم، قرر أقارب رانيا أن أكثر وسيلة آمنة لإخراجها إلى المستشفى كانت أن تدعي الموت. حيث غطوها بقطعة من القماش أبيض اللون ونقلوها فوق أحد الأبواب التي نزعوها من مكانها لاستخدامه لنقلها، حملوها عبر الشوارع وفقاً لطريقة نقل الموتى.

تمركز بعض الجنود في مواقع بمسكن أبو حسن المكون من طابقين، بينما توقف بقية أفراد المجموعة عند منزل عفاف دسوقي، وهي في أواسط الخمسينات من عمرها، غير متزوجة مريضة وحركتها بطيئة. عندما لم ترد على طرق بابها، قرر الجنود الإسرائيليون اقتحامه بتفجيره، وهو إجراء متبع في حالة امتناع البعض عن فتح أبوابهم أثناء تفتيش عسكري وعثر على جثتها بعد عشرة أيام لاحقة، حيث كانت ممزقة بشظايا.

وفي تلك الأثناء كانت مكبرات الصوت الفلسطينية تطلق حرباً إعلامية بالعبرية، بينما كان الجنود يتوجهون بصعوبة من أعلى التل إلى

أسفله. حيث قال أحدهم: "حسناً تقدموا ولكن بحذر ، لأنه ستكون هناك مقبرة، فنحن نعد لكم الكثير من المفاجآت".

في اليوم الرابع للغزو الإسرائيلي، وهو يوم السبت السادس من إبريل، فوجئ علي دمج، مدير خدمات الطوارئ في المخيم، الذي قام بإغلاق نوافذ مطبخه، بجرافة مصفحة ارتفاعها ثمانية عشر قدماً تقتحم منازل جيرانه متجهة نحو منزله. وخلال دقائق، دكت الجرافة ستة منازل وأحالتها إلى ركام.

وامتنع جار "دمج" الذي كان يعُاني من إعاقة ذهنية، واسمه حسن أبو حطب، وهو أب لثلاثة، عن مغادرة منزله قبل أن تدكه الجرافة. وعثر الجيران على جثته وقد أصابته رصاصة في رأسه وتسع رصاصات في صدره.

ولجأ "دمج" وأسرته مع حوالي ثلاثين شخصاً آخرين لمبنى مجاور نجا من التدمير، اختبأوا جميعاً طوال أيام الحصار في غرفة واحدة، اقتسموا ما توفر من الماء والخبز. ظلوا طوال الليالي اللاحقة يحصون التفجيرات التي استمعوا إليها والناتجة عن قصف المروحيات للمخيم.

كان"دمج"، كما هو حال العديد من السكان، قد عقدوا العزم على عدم الفرار. وأكثر من ذلك، أنه اعتبر أن التخلي عن المخيم قد يسهل على الإسرائيليين اقتحامه وقتل المقاومين.

ومع اقتراب الجنود من وسط المخيم قرر المقاتلون الفلسطينيون خوض مواجهة أخيرة، حيث احتشدوا في موقع متوسط صغير وانتظروا. قال المقاتل غسان هيجا بعد ذلك أثناء تلقيه للعلاج من إصابة في قدمه: "كنا نتمتع بإرادة قوية. أقسمنا جميعاً على أن نموت شهداء".

وأدرك شهرزاد الصباح.. وسكتت عن الكلام المباح.

(٣٨)

كل هذا الحب .. لا أدري إن كنت أخاف عليه أو أخاف منه، لم أكن أدري ولم أقرأ أبداً في كتبي كيف ينقلب الساحر إلى مسحور؟ أو لم يحتفظ بسره حتى انقلب عليه.

وسادتي الخالية تسأل عنك.. مَن سينام على ذراعي إلا أنت. وطقوسك الليلية تسأل عنك.. أرجيلتك المفضلة ورائحة التفاح العابق ينفث منها.. كأسك نصف الممتلئ يناديك.. إغماضة عينيك بانتشاء.. صوتك الهامس الذي يعلو رويداً..رويداً وينفعل لفكرة الفراق.

– اهدئي قليلاً.

تبتسمين..

– أرجوك تحمل انفعالي، ومن لي غيرك يتحملني بكل حالاتي أعرفك واحتويك من أول شعرة في رأسك حتى آخر ظفر في قدميك الصغيرتين..

أعرف متى يمشي الغضب بين غضاريف جسمك، والنار متى تسري في حنايا ضلوعك؟.

تصمتين وتنظرين إليَّ بتمعن:

– أحب بلاغة صمتك

تنفرج أسارير وجهك

تسأل عنك الأغنيات التي تحبين سماعه صباحاً.

تسأل عنك الأغنيات التي تحبين سماعه مساءً.

تدخلين غرفتك.. ترتدين قميصك الزهري، بصدره المفتوح، وأذرعه المفتوحة، فتنفتح الدنيا بين يديك، وتبدين كأنك قادمة لأجل هارون الرشيد.

تبدلين شريط الكاسيت، تخفت الإضاءة.. ترقصين بانتشاء وتبتل، فتهتز ساحة قصر الرشيد، وتغني جواريه معك ببركات تضرعك..حركة صدرك شهية.. ناعسة طرية.. حركة ساقيك الرشيقة المتباعدة، جعلت "خوفو" يأتي ويطل علينا مبتسماً "أي نغم هذا!! لا يتمتع به سوى الملوك والأمراء.

كنت أسمع هذا الصوت يرج جدراني.. لا أعرف ماذا يقول، لكن رأسي كان مزدحماً بهذا الصوت، الذي بدأ عادياً أول الأمر، حتى وصل إلى حد الصراخ بي "إنها لك.. وأنت لها".

وليت وجهي شطرك، فسبحت في جزرك المرجانية، رأيت نفسي هناك.. ورأسي يدخل في صدرك، وتشعلين جسدي بلمسة واحدة منك تشبه عود الكبريت الذي أشعل غابة، فأضاءها وأحرق عشبها وأشجارها.. وبقيت أنا معك لا أصدق ما أرى، وأنا أرميك على فراشك، وتغزو أصابعك جسدي، فأعطرك بكل وجودك، ويرمي جسدك مطر لذاته عليَّ.

وتمرح أظافرك في حنايا جسدي العملاق، فتوقظ أيام الصبا وترمم الشقوق وتزيح الضباب، وتعلن الحرب على كوابيس حرماني، فتنتصر لي.. أية أنثى هذه التي يشتهي الهواء شبقها، ويشهق الرجال أمامها، وتصمت النساء في حضرتها.. لا شفيع لي أمام عينيك سوى اعترافاتي.. تعرفين أخطائي، ومكمن قوتي، وانفض لذة بين يديها.

أعاود الدخول مرة أخرى.. التصق أكثر وأكثر.. جلدها لا رائحة له سوى الندى المعتق، فأشتهي أن أحتسيه من مساماتها، وأنا أمضي نحو الفردوس.. ما قيمتي كملك أمام استدارة الصدر، وأمام فخذ واحد من فخذيها، فيجعلني أشعر بأيام مراهقتي وأتذكر حبي الأول الذي حولته إلى ذكرى.. مجرد ذكرى.

هم يريدون تلطيخ بكارتي..لا أستطيع أبداً أن أنسلخ من جلدي.. السوط ينزل فوق ضلوعي.. أرى دمي النازف.. لا أحد ينقذني سوى صوتك "كن جسوراً.. أريدك كما أنت".

قالت: أريد أن أصرخ ملء حنجرتي وحرماني القديم.

لا أكذب أبداً أو أخطئ في حضرة هذه المرأة التي أعطتني متعة لن تتكرر، فلم يبق في الدنيا خمرة، إلا خمرتها.

صرت أراك في كل امرأة تمر بي..

أين وضعت المناشف؟ لماذا لم تخبريني بمكانها قبل سفرك؟ وأين قميصي الأزرق هل غسلته؟ ورابطة عنقي الكحلية اللون – التي تحبينها – أين ضاعت وسط ركام ملابسي، والصابونة التي أحبها برائحة الفراولة.. لماذا تلاشت ولم تتركي واحدة غيرها على المغسلة، وكريم الحلاقة، لماذا لم تخبريني أنه جف.. وحوض المطبخ الذي ينسد كلما وقعت فيه أي بقايا.. لماذا لم تخبريني حتى أحضر "سباكاً" لإصلاحه..

لا طوق نجاة من الوحشة إلا حضورك.. لا كلام لي مع أحد إلا عنك..

أسرارك عندي.. وطقوسك رائحتها تعطر أيامي.. كأسان من النبيذ – في حالة الفرح – ندخن الأرجيلة مرتين في اليوم.. مرة بعد الغذاء، وأخرى في آخر الليل.

ملابسك الداخلية ما بين الأبيض والأسود.. كلاهما يحكي عنك بشغف.. لماذا تركتها في خزانة ملابسي لتعذبني كل ليلة.

(٣٩)

قال: كم غريقاً لا يعرف بغرقه؟

قالوا: بلغت مبلغاً يقال لك أصحبناك السلامة، وأسقطنا عنك الملامة، فافعل ما شئت.

قال: كم غريقاً في الشيء لا يعرف بغرقه؟

قالوا: عّرفناك ونبّهناك عما تجهل، وأنت غافل عنه، وسقيناك شراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف، والأنوار بالأنوار والأسماء بالأسماء والنعوت بالنعوت، ويتسع فيه النظر لما شئت، فالشرب سقيا القلب والأوصال والعروق. أنت أدمنت الشراب بكأسك مع السكر والصحو، كلما أفقت أو تيقظت شربت.

قال: شربت حتى يكون سكري وصحوي به، حتى أغيب عن المحبة، وعن الشراب والكأس بما يبدو لي من قدس الجلال، ولا أحد يعرف المحبة أو السكر، إلا من جربه.

قالوا: إن جاءك منها شيء فلا تنظر إليه بعين الرغبة.. ولا تعلق قلبك بالظفر بشيء، فإنك لا تدري أتصل إليه أم لا ؟ وإن وصلت إليه فلست تدري ألك أم لغيرك؟ فإن كان لك فلست تدري أفيه

الخير أم فيه الشر؟ وإن كان لغيرك فليس لك به علم، هل هو لحبيبك أم لعدوك؟

قال: وكيف يسكن القلب إلى موهوم؟

قالوا: استعمل الشكر إذا ظفرت به، والصبر والرضا إذا لم تظفر، وإن منعت فإنك لم تمنع عن بخل وإنما منعت نظراً لك، فإذا منعك ذلك فقد أعطاك، ولكن لا يفقد العطاء في المنع إلا الصديقين، وإذا خرج بك الطلب منه مخرج السخط، فالجأ إلى العزيز وفر إليه حتى يكون هو الذي يخلصك.

قال: "مَن حسُنت نيته صلح عمله" خصني حبيبي بالمحبة ورفع الحاجة من صدري في الليل والنهار وجنبني الظلمة وإيثار أهل السلطة والنفوذ، وحسن القصد والإرادة وارتباط القلب مع الجوارح.

قالوا: اسأل تعطى.

قال: سألت حسن اللب، ودوام الذكر والزهد والرضا في الدنيا عموماً، وفي الناس خصوصاً، والتحيز للأحوال ومقامات الرجال.

قال: وماذا أفعل لصد الهوى؟ قالوا: أهل الطريق لا يسألون هذا السؤال، لأنه يشوّش الباطن ويبدل الفهم.. عليك الإجابة بنفسك.

(٤٠)

بلغني أيها الملك السعيد :

أشعر بانتصار عظيم، وأضحك في ضميري كلما تذكرت ضحكتك.. أواصل عملي تسير حياتي بخطى ترتاح لها. ها هو شهر رمضان على الأبواب.. أتذكر، إنه الشهر الذي التقينا به، له محبة في قلبي، أحبه اليوم أكثر.. لقد قررت السفر فيه وشجعني أهلي على ذلك، كأني على موعد معك.

أنا مثلك حاولت الهروب منك والابتعاد عنك منذ بداية رؤيتي لك، بعدها لم أقدر أبداً على الهروب، كأن قدري أتى بي إليك.. هل تعلم أنني حاولت السفر إلى مصر بمساعدة أحد الأصدقاء، ولم نقدر، فلم يكن أمامي أحد غيرك، لأطلب المساعدة، فقد كان بفكري أن آتي إلى مصر، واتصل بك لزيارتك، وخاصة بعد مكالمتك معي.. وأصدقك القول أنه لم يكن في فكري أبداً أني سأجد شخصاً مثلك والأكثر من ذلك أنه لم تأت ببالي فكرة أبداً أني سأشعر بكل هذه المشاعر تجاهك، فزيارتي كانت للهروب بنفسي بعيداً عن أية علاقات ومعارف.

أشتاق لتلك الأيام، الليالي التي قضيناها معاً ، لم أعش أبداً لحظات عشق كتلك.

إنني أتساءل: هل أحب أحد غيرنا وعاش كل هذا الحب؟ لا أدري، لهم حبهم، ولنا حبنا، قصتنا مختلفة كل الاختلاف.

مشتاقة أنا..

لا الأغنيات ولا الأفلام ولا الصور ولا القصائد تقلل من هذا الاشتياق بل على العكس، ربما تزيده، عيناي لا تبصران سواك.. ما أقسى الزمان.. وما أشد عذابه، فبعد كل الظروف الصعبة التي عشتها – قبل معرفتي بك – وبعد ما أحببتك ها أنت بعيد عني، لا أجدك حين أحتاجك، ولا تجدني عندما تحتاجني.. يا لنكد الدنيا، نعيشها محرومين ونحن في أمس الحاجة لبعضنا البعض، فالمكان والزمن كالسيف في حدتهما، فلماذا إذن أحبك.. وما مستقبل هذه العلاقة ؟!

هل تعلم أنه كلما مررت بجانب مقر الشرطة الفلسطينية الذي دمره الإسرائيليون أستعيد ذكريات ذلك اليوم وأنت معي، كان هذا في نفس اليوم الذي كنا فيه بالأزهر، ثم "الحسين" لقد كنت يومها متوتراً مثلي، لكنك حاولت ألا تبيّن لي حتى لا يزيد قلقي..

حاولت وأنا معك ألا أفسد لحظات اللقاء.. وألا أضيعها وهي أثمن من أن تضيع.

لا أخاف تغير مشاعرك نحوي. كلماتك تلامس قلبي وتناجيه.. فلا تبخل بكتاباتك عني ولي، لعلها تشفي بعضاً اشتياقي.. أهكذا أنت ؟!

أهكذا تتعذب، أمازالت مشتاقاً لأحرفي، لِمَ قررت أناملك أن تقتلع زهور الأمل من طريقي وتغرس في مهدها خناجر الخيبة؟.. أبعدتك عني مشاغلك الكثيرة، والشكوك أخذت منك ما أخذت، وبدأت بزرع بذورها بينك وبين نفسك!! ما خنتك يوماً.. فمازالَ من ينظر في عيني يراك، وَمن يحاول اقتحامي يجدك متربعاً في نفسي.. ومازلت رجلاً أتاني من هناك.. ليسكن هنا، في وريدي.

هو ذا طيفك بات وحيداً في مخيلتي، بعد أن غادرتني كل الأطياف، سأحرسه، وأرعاه، في كل طريق أعبره، وكلما تمعنت في وجهي بالمرآة.. طيفك طفل في أعماقي نائم يصحو يلهو، يبكي أحياناً ويضحك، ويطلق صيحات الآه.. طيفك يحيطني أينما أدرت وجهي أراه..

ماذا لو عدنا يا صديقي إلى ما قبل الجرح؟

لو عدنا إلى ما قبل البداية..

ومن جديد يشع نورك فيَّ.. ويزداد وجودك داخلي، ليصير نسمة هواء يداعب خصلات شعري، وأنسى قسوة من يملأون هذه الأرض، ويكون وجودك دفئاً خصباً.

خبرني هل مازلت تفتش عن حكايا جدك ؟

وأدرك شهرزاد الصباح، ورحلت.. وسكتت عن الكلام المباح.

(٤١)

ما من لحظة تخيلت أن تكون في حياتي ذكرى.. تكتب فوق أسطر الماضي .. ما من لحظة تخيلت أن تكون أيامك ماضياً أتذكره وابتسم.. ما من لحظة تخيلت ألا أسمع صوتك بعد.. أو تحجب عني كلماتك ورسائلك.. أنت تحاصرينني، تشاركينني في أكلي، شرابي، واختيار ملابسي. صنعت لي أجنحة، وأطلقتني على غصون حبك فراشة ربيعية تنقر الفرح الطالع من عيون الأشياء.. وتسكبه في مقلتيك دمعة وابتسامة شوق وإيماءة حيرة.. وسؤال!!

فكان وجودك شمساً ساطعة تبدد ما حولي من ظُلمة هذه الأيام، تخرجني من نفق أحزاني، وجودك مطر يبلُل جفاف مراعي، فتخضر وتزهر وتتلّون بأزهى وأحلى الألوان.. وجودك مملكة من فرح.. داوت جرحي، وصرت أنت ألمي، صرت فرحي، معالم زمني المتمرد على أرصفة العالم.

صرت تعويذتي.. قمر أيامي الشتائية.. عندما تفرد طيور الحزن أجنحتها وتطلق في الفضاء غنائها، خذيني إلى عينيك.. في دفئها، وحدي أعثر على طمأنينتي.

عشتُ بك رغماً عن الأيام.. رغماً عن المستحيل، رغماً عن البعد عن الليل الذي سكنني، فكان بصيص ضياء، أصلي ليبقى داخلي، لئلا يضل العنوان.. الويل لي إذا نسيتك لحظة.. بل كنت أجبر على الرضى

بالقدر.. وجعلني ذلك القدر أعيش الخريف مع أني مازلت في ربيع العمر..

(٤٢)

قبل أن توافى المنية الشيخ محمود الخضر ..عاده وهو مريض الشيخ أبوعلي أبو رفاعي، فأعطاه ورقة، قال إنه كتبها من وراء الشيخ عوض واحتفظ بها تيمناً بها..

".. هذا بعض ما بي من الهم العظيم.. هنيئاً لكم في الجنان، أفيضوا علينا من الماء فيضاً، فنحن عطاشى وأنتم ورود، لو كانت لي قوة أسافر بها إليك ما بقيت في حيرة، أفلا تعطني حق محبتي لك، وصحة اعتقادي فيك.. يا من إذا تذكرته انشرح صدري وكبر طمعي، وأنت تعرف من زمان شدة عطشي، وما حصل لي الإذن فيما علمت إلا على يديك لكن وراء ذلك حيرة شديدة في كيفية الذكر والتصرف، فقد حصل لي القلق العظيم فارحمني بما يشفي علتي ويبرد غلتي، فعسى أن يأتي الفتح أو أمر من عنده على يديك..

يا حقيقة الحقائق. نقطة الانطلاق. ووجهه كل شيء بالاستحقاق.. نرجو بركتك وصلاح قلوبنا، يا دائم الفضل على البرية، ويا باسط اليدين بالعطية.

يا بحر النور الأول، والسر الأكمل، عين الرحمة. مقرب أسرار الذات. مشرق الأنوار الساطعة، والأحوال الناجحة، وعدل الأمر. وعطف الكبر. نافع الأمطار. كفاية شر الليل والنهار.

اسمك الأسمى. جعلته من الإدراك في حمى، يتجلى بحفظ ما خفي أسرار. ولطف كامل الأنوار، لطفك على عبدك الذي وفقته في إسراج مصابيح العلوم.

نور على نور.. جمال في الإبصار وجلال في الصدور.

(٤٣)

بلغني أيها الملك السعيد :

ها أنا أعود إلى عملي الذي أصبحت أمل منه، حيث أصبحت حياتي روتيناً ، فبعد كل هذا الاشتياق لك خلال الشهور السابقة للقائنا لم أجدك كما تمنيت أن أراك.. وربما لم تجدني كما وددت أن أكون.

أدرك أن كلانا لم يكن في أحسن حالاته، فأنت دائم الانشغال بأمور العمل.. أما أنا فبقلقي على أهلي وعلى الوضع السائد، وعدم قدرتي على البقاء معك مدة أطول.. ربما سبب ذلك إحساسي بالذنب لتركي عائلتي في تلك الظروف، وذهبت إلى حيث أنت.

نعم، لم تكن رحلتنا تلك كرحلاتنا ولقاءاتنا السابقة.. أنا لا ألومك، لا ألوم نفسي، ليس أمامي سوى أن ألوم الظروف كالعادة وككل مرة، ورغم هذا كله فقد ازددت معرفة بك. لعل الملل الذي يمر بي كان نتيجة لأحداث كثيرة ومريرة مررت بها، وشعوري بعجزي أن الوضع في وطني يزداد تعقيداً، وكأن لا غد ينتظر.. أتعرف معنى هذا الإحساس.. إنه بركان مخيف يغلي بداخلي، وأشكك في قدرتي على المواجهة والصمود، أحياناً أفكر بالقيام بعمل انتحاري ضد المحتل، الذي دمر قريتي واحتلها منذ أكثر من خمسين عاماً، وسلب الصبح منا.

نعم سأقف صامدة -كما تعّودت مني وعهدتني - في وجه أي تيار، لن أدع الخوف يهز قوتي .. كأني أرى تعابير وجهك تقول ما بهذه الفتاة هل أصبحت مقاتلة وفدائية بين يوم وليلة ؟.. نعم الحياة أشبه بحرب يجب مواجهتها.

لا أريد أية وعود منك، فمشاعري تجاهك تكفيني لاستمرار الحياة حتى نهايتها.. إني أفكر الآن ومقتنعة أنه ليس المهم الوصول إلى المنتهى.. فالمهم هو الحفاظ عليه، فرغم وصولنا المتأخر له، إلا أننا قد وصلنا له، فالمنتهى إشباع بداخلنا.

ها أنا أعود لصوت عبد الحليم حافظ.. أعود إلى سريري .. وإلى ذكرياتي معك بعد أن ازداد رصيدها.. فكلما أعدت شريط ذكرياتي معك

تمنيت لو أن الشريط طال أكثر، واحتوى تفاصيل أكثر، كل لقاء معك وهج متأجج أتمنى لو كان أطول.

أحاول أن أجد وسيلة للهروب معك وبك إلى مكان لا أرى إنساناً غيرك، ولا ترى فيه غيري.. لعل الحلم يهون عليَّ بعدك..

ها أنا أكتب لك، وأنا استمع عبر التلفاز للتمثيلية التي تسمى مؤتمر القمة العربي.. أصبحت مصابة بانفصام الشخصية بين إحساسي الداخلي بحب الأرض والوطن العربي، وبين ما أرى وأسمع، وما يجري على مستوى الدول والشعوب العربية.. نحن لا نريد نقوداً، لا نريد عطفاً، أو دموعاً.

كل ما نريده هو موقف في زمن كثرت فيه المزايدات، أمي تذكرني دائماً بأقوال الزعيم عبد الناصر.

الأطفال يموتون كل يوم، والأمهات تقاسي اللوعة، والآباء يقفون مكتوفي الأيدي.. وكل ما يفعله الرؤساء والملوك هو التبرع بالمال، فهل المال يمحو أحزان الأمهات الثكالى ويجفف حسرة الآباء؟، ويغني طفلاً عن مناداة أبيه بـ "أبي"..

إن كلماتي لا تقدر على التعبير عن مشاعر الغضب التي تملأ صدري.. لا تتعجب من أن تتحّول رسالتي لك، إلي وصف ما حولي.. إنني ألتجأ بتفكيري وأحاسيسي بك ومعك، وأهيم في دنيا أخرى لا يعرفها ولا يشعر بها إلا أنا، لا أخفيك حقيقة، إنني لولاك لما قدرت على تحمل المسئولية الملقاة على عاتقي.

كم أتمنى أن أكون معك، حتى أساعدك فأنا أعرف الكم الهائل من العمل الذي تقوم به.

لقد غادرتك في آخر لقاء وأنا قلقة عليك .. كنت تشرب بكمية كبيرة.. أريد أن أكون مطمئنة عليك، خفف من الشراب فأنا بحاجة إليك حتى لو طالت المسافة وطال العمر.

وأدرك شهرزاد الصباح.. وسكتت عن الكلام المباح.

(٤٤)

ما جدوى أن تحتلي أرضاً بداخلي وأن تعبثي بأحلامي ؟

ما جدوى السؤال ؟ ما جدوى الجواب ؟

إلا إننا نبحر عكس التيار.. نقلع عكس الرياح وعكس الزمن.. لقاء غايته الفراق .. وحب بلا غايات .. ارحلي يا رفيقتي .. غادريني، فأنا موشوم بنقش الحزن، بحاري بلا موانئ.. سفني بلا ربان ..

يا امرأة تحيا فوق الموجة، كان لقصتنا بداية مختلفة، فلا أريد لها سيناريو مشترك مع أية حكاية.

لن أقول: كم كنا أغبياء سأقول: كم كنا أقوياء.. هل الأفضل ما حدث.. أم الذي لم يحدث ؟

الآن.. وحين أكتب إليك مساء، لا أعرف إن كنت غبياً أم قوياً.. لا أعرف إن كان عليَّ الاستسلام لقدري أم مقاومته.. كل ما أعرفه أنني

أريد أن تظلي فخورة بي، أنا طفلك الآخر، صديقك.. رجلك الذي اندفع إليك بشوق في لحظة جنون عذب ..

أخشاك.. أخشى أحاسيسي نحوك .. أخشى أن تشتعل. المسافات بيننا وتحترق أماكننا في وقت ما..

(٤٥)

قيل إن روحه لما بلغت الحلقوم .. تناولها ملكان حسنا الوجه، عليهما أثواب حسنة، لهما روائح طيبة، وقاموا بلفها في حرير، وقبضوا عليه وعرجوا به في الهواء.. أخذوا يمرون بالزمن السالف والقرون الخالية، حتى انتهوا إلى السماء الدنيا.

فقرع الأمين الباب، فقيل للأمين – مَن أنت؟

قال: أنا "الأمين" وهذا عوض بن سليمان وكانت عقيدته حسنة غير شاكٍ.

ثم انتهى إلى السماء، فقرع الأمين الباب: فقيل للأمين – من أنت؟

فقال مقالته الأولى.

قيل لأهلاً وسهلاً بعوض بن سليمان، نِعَم العبد كان محافظاً على صلاته وجميع الفرائض.

ومر حتى انتهى إلى السماء الثالثة، فقرع الأمين الباب :قيل َمن أنت؟

فقال الأمين مقالته الأولى والثانية..

فقيل له: كان يرعى الله في حق ماله، لا يتمسك منه بشيء، ثم مر حتى انتهى إلى السماء الرابعة.

فقرع الباب: فقيل َمن أنت؟

فقال كدأب مقالته.. قيل له كان يصلي ويحسن الصوم، ويحفظه من إدراك الرفث وحرام الطعام، ثم انتهى إلى السماء الخامسة فقرع الباب.. فقيل: َمن أنت؟

قال مقولته كعادته.

قيل:أهلاً وسهلاً به، أدى حجة الله الواجبة عليه من غير سمعة، ثم انتهى إلى السماء السادسة، فقرع الباب.

قيل: َمن أنت؟

قال الأمين مقولته، قيل: مرحباً.. كان كثير الاستغفار بالأسحار، يتصدق بالسر ويكفُل الأيتام، ثم فتح له، مر حتى انتهى إلى سرادقات الجلال، قرع الباب..سألوه َمن أنت؟، قال مقولته فقيل:مرحباً بالعبد الصالح صاحب النفس الطيبة،كان يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن المنكر، يأمر بالمعروف كثير الاستغفار.

وقيل إنه مر بملائكة كلهم يبشرونه بالخير، يصافحونه حتى انتهى إلى السدرة، فقرع الباب، فقال الأمين كدأب مقالته: فقيل مرحباً بالصالح، كان عمله لوجه الله، وفتح له، فمر في بحر من نار، ثم مر في بحر من نور، ثم مر في بحر من ظلمة، ثم مر في بحر من ماء، ثم مر في بحر من ثلج، ثم مر في بحر من برد طول كل بحر منها ألف عام، ثم اخترق الحجب المضروبة على العرش، وهي ثمانون ألفاً من السرادقات.. لكل سرادق ثمانون ألف شرفة، على كل شرفة قمر يهلل ويسبح ويقدس، لو برز منها قمر واحد إلى سماء الدنيا لعُبد من دون الله ولأحرقها نوره.

حينئذ نادى منادٍ في الحضرة القدسية من وراء السرادقات:

- مَن هذه النفس التي جئتم بها؟

- إنه عوض بن سليمان.

فيقول الجليل جل جلاله: قربوه، نِعَم العبد كنت يا عبدي.

روى الشيخ علي أبو رفاعي أنه قد رأى الشيخ عوض بن سليمان في منامه، قال: سألته: ماذا فعل الله بك؟

فقال: أوقفني بين يديه، ثم قال يا شيخ السوء فعلت كذا.. وفعلت كذا..

فقال: يارب، ما بهذا حدثت عنك.

قال: فبماذا حدثت عني يا عوض؟

فقلت، حدثني الزهري عن معمر عن عروة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عنك سبحانك أنت.. قلت: "إني لأستحي أن أعذب شيبة شابت في الإسلام" فقال يا عوض: صدقت وصدق الزهري، وصدق معمر، وصدق عروة، وصدقت عائشة.. وصدق محمد.. وصدق جبريل.. وقد غفرت لك.

وعن ابن ابنه، أنه قد رآه في المنام، فسأله: ما فعل الله بك؟

فقال: أوقفني بين يديه الكريمتين، وقال: أنت الذي تلخص كلامك حتى يقال ما أنصحه.

فقلت: سبحانك إني كنت في الدنيا أصفك، قال قل كما كنت تقول في دار الدنيا، قلت: أماتهم الذي خلقهم، وأسكتهم الذي أنطقهم، وسيوجدهم كما أعدمهم، وسيجمعهم كما فرقهم.

قال لي: صدقت، اذهب قد غفرت لك.

وعن ابنه أنه رآه في المنام فقيل له ماذا فعل بك ربك؟

قال: سألني بماذا جئتني يا عوض؟

قلت: بست وثلاثين حجة.

قال: ما قبلت منها ولا واحدة.

ثم قال: بماذا جئتني؟

قال: بثلاثمائة وستين ختمة قرأتها لوجهك الكريم.

قال: ما قبلت منها واحدة : ثم قال لي: بماذا جئتني؟

قلت: جئتك برحمتك؟

قال سبحانه: الآن جئتني.. اذهب فقد غفرت لك.

وعن ابنه قال: إنه كان يقول في الدنيا: إذا حدثتك بشيء إنما ليقتدى به المقتدي.. إنما يصل إلى المنتهي عارفوه ولا يقف بين يديه إلا أهل المقام الرابع فصاعداً.

سأسافر سفرا مشرقا لا يخجل صاحبه.. حقا: أسعد البشر من رحل مطمئنا لا يخشى الخوف على أحبائه، واثقا من أنهم نبع من الإرادة ومغالبة النفس، فيشحذ ذلك من همته في غربته.. وأشقى الناس من رحل وترك أحباءه وهم مغتربون في شتات وحصار. أنا الآن أفهم.. كل ما فعلته يا جدي.. وأعي كل ما قلته.. حتى وإن رحلت.. وغابت شهرزاد عن عالمي.. فقد شددت الرحال إليك.. وفتحت النوافذ.. فقد زارني النور.

إشارات من المؤلف

■ اعتمدت على وثائق جامعة بيرزيت الفلسطينية حول القرى الفلسطينية التي دمرها الاحتلال الصهيوني ما بين عامي ١٩٤٨ — ١٩٥٠.

■ "سلمة" اسم لقرية فلسطينية دمرها اليهود عام ١٩٨٤، وتقع على بُعد خمسة كليو مترات إلى الشرق من يافا، وسُميت بهذا الاسم نسبة إلى الصحابي "سلمة بن هشام بن المغيرة"، الذي استشهد في موقعة أجنادين عام ١٣هـ / ٦٣٦م ودفن القرية ومازال ضريحه بها.

■ هاجر ما تبقى من السكان العرب لقرية "سلمة" بعد أن دمرها الاحتلال إلى "لواء رام الله" للاجئين.

■ مازال السكان اليهود الشرقيون يعيشون في بيوت "سلمة" القديمة، ويطلقون عليها اسم "كفار شاليم" وتعتبر امتداداً لمستعمرة "هاتكفا" التي هي جزء من تل أبيب.

■ اعتمدت في النصوص الصوفية على قراءاتي لـ"المفاجر العليا في المآثر الشاذلية" لأبي الحسن الشاذلي و"مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخبار" لأبي العباس بن يعقوب.